ما دلّ عليه القرآن

مِمّا يَعْضُدُ الهيئةَ الجديدةَ القويمةَ البُرهان

تأليف

السيّد محمود شكري الآلوسي

خرج احاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الالباني

المكتب الاسلامي

ما دلّ عليه القرآن

مِمّا يَعْضُدُ الهيئةَ الجديدةَ القويمةَ البُرهان

تأليف

السيد محمود شكري الآلوسي

مكتبة أبو بلال
الدمام
عتيق عبد الحميد الفوز
١٥

المكتب الاسلامي

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٨٠ — ١٩٦٠

الطبعة الثانية

١٣٩١ — ١٩٧١

مطابع المكتب الاسلامي - بيروت - ص.ب ٣٧٧١ - هاتف: ٢٨٥٩٦٤ - برقيا (اسلاميا)

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

وبعد فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلى نبيه محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذي له مافي السموات والأرض . فالقرآن كتاب هداية وإرشاد إلى الطريق المستقيم الذي يضمن خيري الدنيا والآخرة ويبلّغ مرضاة الله تعالى .

(وكذلكَ أوحينا إليكَ روحاً من أمرِنا ، ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جَعلناهُ نوراً نَهدي بهِ من نشاءُ منْ عبادِنا ، وإنَّكَ لَتهدي إلى صِراطٍ مستقيم صِراطِ اللهِ الذي لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرض ، ألاَ إلى اللهِ تصيرُ الأمور » (١) .

---

(١) سورة الشورى ، ٥٢ – ٥٣

وليس القرآن كتاباً في العلوم الكونية حتى نردّ إليه كلّ نظرية ، ونفتش فيه عن كل مكتشف ، كما يفعل بعض الناس في أيامنا هذه ، فيأتون أحياناً بالعجب الذي لا يخطر على بال . ما يكاد هؤلاء الناس يسمعون بنظرية علمية رائجة حتى يحاولوا أن يحملوا بعض آيات الكتاب المبين على الدلالة عليها ، ويقسروها على تضمنها ، مائلين بها عن وجهها ، ظانين أنّ بذلك خدمة الإسلام . والنظرياتُ العلميةُ يعرض لها التغير ؛ تَبطلُ نظرية وتقومُ نظرية ، ويحلّ رأي محل رأي ، ويكشفُ البحث عن جديد ينقضُ القديم أو يعدّل فيه ، فيوقعونَ أنفسهم في الحرج ، ويَتَسبَّبُون في نسبةِ التناقضِ إلى كتاب الله عز وجل ، وهم عن ذلك في غنى ، لأن كتاب الله خالد لا يتغيرُ ولا يتبدلُ ليوافقَ كل نظرية ، ويؤيدَ كلّ رأيٍ ، ولأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

* * *

قلنا إن القرآن ليس كتاباً في العلوم الكونية ، ولكننا نحب أن نبين أنه ربما أشار إلى بعض الحقائق والنواميس الكونية ، وهو يحث الناس على النظر والتأمل ويرشدهم إلى عظمة ما خلق الله ليهديهم إليه . فما أشار إليه الله هو الحق الذي لا يمكنُ أن تتناقضَ معهُ الحقائق العلمية التي يثبتها البحث إثباتاً قاطعاً ، وكم بين هذه الحقائق وبين النظريات والفروض من فرق .

* * *

ولكنْ ، أليسَ للقرآن علاقةٌ أخرى بالعلوم الكونية ؟

الجواب على ذلك : بلى . فالقرآن قد أرشدنا إلى الطريقة السديدة في البحث ، التي توصلُ إلى الحقائق ، ووضعَ لنا أساسَ المنهج العلمي السليم .

إن المنهجَ العلمي السليم في البحث إنما يقوم في لُبابه على النظر والملاحظة وتحكيم الفكر في هذا النظر وهذه الملاحظة ، وهو ما أرشد إليه الله في كتابه الكريم .

(إنَّ في خلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب. الذين يذكرونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكَّرونَ في خلقِ السموات والأرض، ربَّنا ماخلقتَ هذا باطلاً، سبحانَكَ فقنا عذابَ النار)(١) .

(قُلِ انظروا ماذا في السموات والأرض)(٢) .

(وفي الأرض آياتٌ للموقنينَ وفي أنفُسِكُم أفلا تبصرون)(٣).

(قل إنما أعِظُكُم بواحدة ، أنْ تقوموا للهِ مَثنى وفُرادى ثم تتفكروا ..)(٤).

فالنظر الواعي والملاحظة العميقة وإعمال الفكر هي مفتاح كل تقدّم وكشف، وهي التي فتحت للعلم آفاقه ، وأخرجت للناس ثماره ، وهي التي ندبنا إليها ربنا ، واستفاد منها سلفنا .. وهكذا يمكن أن نقول : إن القرآن قد أعطانا مفتاح المعرفة في العلوم المختلفة .. وليس يطلب منه ، ولا هو من غرضه ، أن يقدم لنا تفصيلاتها المختلفة ، وجزئياتها الكثيرة . وحسبه أنه حطّم أمام العقل القيود ، ورفع عنه الحجب ، وحفزه إلى الانطلاق على ألا يتجاوز حده ويتخطى ميدانه .

* * *

والكتاب الذي في يدك أيها القارىء « ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة » للعلامة الشيخ محمود شكري الألوسي :(٥) ، يعرض ما تقول به « الهيئة الجديدة » مما لا يعارض كثير منه النصوص الواردة في الكتاب والسنة ، ويجمع ما ورد في هذا الباب من الآيات المنتشرة في سور القرآن على ترتيب سورها ، ويخص منها المشتملة على الأجرام العلوية ، والأجرام السفلية ، ويذكر في تفسيرها ما ذكره جهابذة المفسرين ، ملتزماً في ذلك طريق الاختصار ، وأصح الأقوال ، وأصوب الأفكار » .

---

(١) سورة آل عمران ، ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة يونس ، ١٠١ .

(٣) سورة الذاريات ، ٢٠ - ٢١ .

(٤) سورة سبأ ، ٤٦ .

(٥) نقلاً من مقدمة المؤلف .

وهو في ذلك كله لا يتمحّل ، ولا يعدل بالنصوص عن وجوهها ، ولا يصرفها عن دلالاتها ، ولا يحكم فيها النظريات الشائعة ، وإنما يقرر في مطلع كتابه منهجه الذي يضع الأمور مواضعها في هذا الأمر ، ويتجافى عن طريقة الذين يجعلون القرآن كتاباً في العلوم الكونية ، ومخزناً لأفراد المكتشفات والمخترعات ، ويخضعونه لكل نظرية شائعة حقاً كانت أو باطلاً ، وباقية أم زائلة . يقول عن « الهيئة الجديدة » :

« رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة في الكتاب والسنة على أنها لو خالفت شيئاً من ذلك ، لم يلتفت إليها ، ولم نؤول النصوص لأجلها . والتأويلُ فيهما ليس من مذاهب السلف الحَرِيّة بالقبول ، بل لا بُدَّ أنْ نقول : إنَّ المخالف لهما مشتمل على خللٍ فيه ؛ فإن العقل الصريح لا يخالف النقلَ الصحيحَ ، بل كلٌ منهما يصدّق الآخر ويؤيّده .

واعلم أن الشريعة الغرّاءَ لم تَردْ باستيعاب قواعد العلوم الرياضية ، إنّما وردت بما يستوجب سعادةَ المكلّفين في العاجل والآجل ، وبيان ما يتوصّلون به إلى الفوز بالنعيم المقيم ، وربما أشارت — لهذهِ الأغراض — إلى ما يستنبط منه بعضُ القواعد الرياضية » .

ويقول في الصفحة (٢٣) :

« وإذا أمكن الجمع بين ما يقوله الفلاسفة كيف كانوا مما يقبله العقل ، وبين ما يقوله سيد الحكماء ونور أهل الأرض والسماء ، فلا بأس به ، بل هو الأليق الأحرى في دفع الشكوك التي كثيراً ما تعرض لضعفاء المؤمنين .

وإذا لم يكن ذلك ، فعليك بما دارت عليه أفلاك الشرع ، وتنزلت به أملاك الحق » .

* * *

وقد دفع إلينا هذا الكتاب لنقوم بطبعه فضيلة العالم العامل الشيخ عبد الملك ابن إبراهيم آل الشيخ رئيسَ جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحجاز وليس يوجد منه إلا هذه النسخة الوحيدة لفضيلة الأستاذ الجليل محمد بهجة الأثري .

وقد تولينا طباعة الكتاب وتصحيحه ، وترجمنا لمن ورد ذكرهم فيه [1] ، وصنعنا له فهارس للموضوعات والكتب والأعلام[2]، رجاء أن نزيد الفائدة منه .

أما الآيات فقد رقمها وضبطها فضيلة الأستاذ الأثري — جزاه الله خيراً — كما علق بعض تعليقات ذيلناها باسمه تمييزاً لها عما صنعناه .

وأما الأحاديث فقد خرجها أستاذنا المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني وجعلنا تخريجها مع فهرس الحديث في آخر الكتاب .

والله المسؤول أن ينفع بهذا العمل ، وأن يثيب من كان سبباً في إبرازه ، أو شارك في إخراجه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق العاشر من جمادى الأولى ١٣٨٠

ابوبكر

زهير شاويش

---

(١) نجد ذلك في أول صفحة يرد فيها ذكر المترجم ، وما فاتنا جعلناه في ملحق آخر الكتاب ص ١٣٧

(٢) تشمل المتن والتعليقات على السواء .

السيد محمود شكري الآلوسي

هو أبو المعالي ، محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الألوسي الحسيني ، العالم ، المؤلف ، اللغوي ،الأديب ، المصلح .

ولد ببغداد سنة ١٢٧٣ هـ في أسرة عريقة معروفة بالعلم والدين .

وتلقى العلم عن أبيه ، وعمه أبي البركات نعمان خير الدين الألوسي ، والشيخ اسماعيل بن مصطفى الموصلي ، والسيد محمد أمين الخراساني الفارسي وغيرهم .

وتقدم في العلوم العقلية والنقلية ، ودرس وألف فذاع صيته وقصده الناس من بلدان متعددة . فكان زعيماً من زعماء النهضة ، ورائداً من رواد العلم والأدب ، وداعياً من دعاة الاصلاح ، حارب البدع والخرافات ، ودعا إلى نهج السلف الصالح ، وهاجم التصوف وطرقه . وكان مثالاً للعالم الجريء المتعفف أيام الدولة العثمانية وفترة الاحتلال الانكليزي للعراق .

وقد توفي رحمه الله تعالى ، في بغداد سنة ١٣٤٢ هـ وترك آثاراً كثيرة في الدين واللغة والتاريخ والأدب والعلوم الأخرى منها :

« بلوغ الأرب في أحوال العرب » .

و « أخبار بغداد وما جاورها من البلاد »

و « تاريخ نجد »

و « الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية » .

و « غاية الأماني في الرد على النبهاني »

و « الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى »

و « فصل الخطاب ، في شرح مسائل الجاهلية للامام محمد بن عبد الوهاب »

و « الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ».

و « بدائع الانشاء »

و « الأجوبة المرضية عن الأسئلة المنطقية » .

و « ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة » وهو هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء في طبعته الأولى .

وكان يحسن الفارسية والتركية ، وله بعض الرسائل المترجمة .

وأوسع ما كتب عنه وأفضله كتاب « محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية » للأستاذ محمد بهجة الأثري .

مُقدمَة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمَدُك يا مبدع الأكوان ، ويا خالق الكون والمكان ، ويا ميسّر الفلك على حسب ما تقتضيه الحكمة من الدَّوَران ؛ ونصلّي ونسلّم على نبيّك « محمّد » الذي سريتَ به من حرم إلى حرم ، ورفعته من سماء إلى سماء ، حتى أوصلته إلى مقام لا تصل إليه الأذهان ، صلّى الله تعالى وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه بدورِ سماء الدراية والهداية وشموس أفلاك العرفان .

أما بعد ، فقد شاع في عصرنا قولُ « فيثاغورسَ »[1] الفيلسوف الشهير في هيئة الأفلاك ، ونصره الفلاسفة المتأخرون ، بعد أن كان عاطلاً مهجوراً ، وهو القول بحركة الأرض اليومية والسنوية على الشمس ، وأنها هي مركز نظامها ، وأن الأرض إحدى الكواكب السّيارة ، وأنها سابحة في الجوّ ، معلقة بسلاسل الجاذبية ، وقائمة بها ، كسائر الكواكب ، لا أنها كما ذهب

---

(١) فيثاغور (Phythagore) حكيم يوناني مشهور وأتباعه يسمون بالفيثاغوريين نسبة إليه . وقد كان لهم آراء في الفلك منها قولهم بأن الأرض كوكب من الكواكب الدائرة حول النار المركزية ، مخالفين بذلك الفكرة السائدة في عصرهم عن الأرض وأنها مركز الكون . ولد فيثاغور في جزيرة ساموس . وتوفي فيها نحو (٦٠٠ ق.م)

إليه « بطليموس »[1] في الأفلاك كالمسامير في الباب ، إلى غير ذلك من قواعدها المشهورة وقوانينها المذكورة .

وقد سماها الفلاسفة المتأخرون « الهيئة الجديدة » ، لكونها شاعت في العصر المتأخر . وإلّا ، فالقول بها متقدّم جداً ، فقد رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة في الكتاب والسنة. على أنها لو خالفت شيئاً من ذلك، لم يلتفت إليها، ولم نؤوّل النصوص لأجلها . والتأويلُ فيهما ، ليس من مذاهب السلف الحَرِيّة بالقبول ، بل لا بُدَّ أنْ نقول : إنَّ المخالف لهما مشتمل على خللٍ فيه ؛ فإن العقل الصريح ، لا يخالف النقلَ الصحيحَ ، بل كلٌّ منهما يصدّق الآخر ويؤيّده .

وأعلم أن الشريعة الغرّاء لم تَرِدْ باستيعاب قواعد العلوم الرياضية ، إنّما وردت بما يستوجب سعادةَ المكلَّفين في العاجل والآجل ، وبيان ما يتوصّلون به إلى الفوز بالنعيم المقيم ، وربما أشارت — لهٰذهِ الأغراض — إلى ما يستنبط منه بعضُ القواعد الرياضية .

وقد ورد القرآن الكريم — في بيان ذلك — بما خاطب به العرب ، مما يعلمونه من علومٍ تلقَّوْها خلفاً عن سلف . فقد كانت لهم علوم ذكرناها في الكتاب الذي ألفناه في بيان أحوالهم[2] ، كما كان لعقلائهم اعتناء بمكارم

---

(١) بطليموس (Ptolémée) من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافيا ، وهو صاحب كتاب « المجسطي » المشهور ، وله النظرية البطليموسية التي تقول بأن الأرض ثابتة وبأن الفلك يدور حولها ، وهي النظرية التي يشير اليها المؤلف .

(٢) هو كتاب (بلوغ الأرب في أحوال العرب) وهو كتاب مشهور في ثلاثة مجلدات، ظفر بجائزة أسكار الثاني ملك السويد وطبع ببغداد مرة وبالقاهرة

الأخلاق واتّصافٌ بمحاسن الشيم ، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل قبيح ، و بينت منافع ما ينفع من ذلك ومضارّ ما يضر منه . فكان من علومها « علم النجوم » وما يختصّ بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرف منازل سير النَّيِّرَيْنِ وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى مقرر في أثناء القرآن ، في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : (وهو الذي جعل لكم النجومَ لِتَهْتَدُوا بها في ظُلُمات البَرِّ والبَحْرِ) ، وقوله تعالى : (وبالنجمِ هم يهتدونَ) ، وقولِهِ تعالى : (والقمرَ قَدَّرْناهُ منازل حتّى عادَ كالعُرْجُونِ القديم . لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ، ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون) ، وقولِهِ تعالى : (هو الذي جَعَلَ الشمسَ ضياءً ، والقمرَ نوراً ، وقدَّره منازلَ ، لتعلموا عَدَدَ السِّنينَ والحساب) ، وقولِهِ تعالى : (وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ ، فمحونا آيَةَ الليلِ ، وجعلنا آيةَ النهارِ مبصرةً) الآيةَ ، وقولِهِ تعالى: (ولقد زيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ ، وجَعَلْناها رُجُوماً للشياطينِ) ، وقولِهِ تعالى : (يسألونَكَ عنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ : هيَ مَواقيتُ للناسِ والحجّ) ، وما أشبهَ ذلك .

ومن علوم العرب: « الأنواء » وأوقات نزول الأمطار ، وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها ، فبيّن الكتاب والسنة حقّها من باطلها ، فقال تعالى :

مرتين . أنظر كتاب « محمود شكري الألوسي » محاضرات محمد بهجة الأثري على طلبة القسم الأدبي في معهد الدراسات العربية العليا (جامعة الدول العربية) بالقاهرة سنة ١٩٥٨م. (الأثري)

(هو الذي يريكم البرقَ خوفاً وطَمَعاً ، ويُنْشِىء السَّحابَ الثِّقالَ ، ويُسَبِّحُ الرعدُ بِحَمْدِهِ) ، وقال تعالى : (أفرأيتم الماءَ الذي تشرَبُونَ ؟ أأنتم أنزلتموه من المُزْنِ ، أم نحن المنزلونَ ؟) ، وقال تعالى : (وأنزلنا من المُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً) ، وقال تعالى : (وتجعلون رزقَكُمْ أنكُم تكذّبون) ، أي بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون ، أي تقولون : « مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا » . وفي الحديث الصحيح : « بعد وقوع المطر أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . أما المؤمن ، فيقول : أمطرنا الله ؛ وأما الكافر ، فيقول : مطرنا بِنَوْءِ كذا »[1] . وفي (المُوَطَّأ) : « إذا نشأت بحرية ، ثم تشاءمت ، فتلك عينٌ غَدِيقة »[2] . وقال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، للعباس وهو على المنبر والناسُ تحته : كم بقي من نوء الثريّا ؟ فقال له العباس : بقي من نوئها كذا وكذا . فمثل هذا مبين للحق من الباطل في أمر الأنواء والأمطار . قال تعالى : (وأرسلنا الرياحَ لَواقحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه) ، وقال تعالى : (اللهُ الذي أرسل الرياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فسقناه إلى بلدٍ ميتٍ ، فأحيينا به الأرضَ بعد مَوْتِها) ، إلى كثير من هذا القبيل .

وقد أحببت أن أجمع ما ورد في هذا الباب من الآيات المنتشرة في سُوَر القرآن على ترتيب سُوَرها ، وأخص منها المشتملة على الأجرام العلوية والأجرام

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما .

(٢) رواه مالك (١/ ١٩٢/ ٥) بلاغاً بدون اسناد .

السفلية ، وأذكر في تفسيرها ما ذكره جهابذة المفسرين ، ملتزماً في ذلك طريق الاُختصار . وأصحّ الأقوال وأصوب الأفكار .

وقد سمّيت ما كتبت في هذا الباب ، وما جمعته من لب اللباب :

(ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان)

ومن الله أستمدّ التوفيق ؛ نعم المولى ونعم الرفيق .

***

سورة البقرة

في هذه السورة بعض الآيات المشتملة على بيان الأَجْرام ، منها قوله تعالى : (يا أيُّها الناسُ اُعبُدُوا رَبَّكُمُ الّذي خَلَقَكم والذين من قبلِكم ، لعلكم تتّقون[٢١] الذي جعل لكم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بِناءً ، وأنزلَ من السماء ماءً ، فأخرج به من الثَّمَراتِ رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لِلّهِ أنداداً وأنتم تعلمونَ)[٢٢]

تفسير هذه الآية :

معنى (جعل الأرضَ فِراشاً) أي كالفراش في صحة القعود والنوم عليها ، أنه سبحانه جعل بعضها بارزاً عن الماء ، مع أن مقتضى طبعها أن يكون الماء محيطاً بأعلاها ، لثقلها ، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين ، ليتيسَّر التمكن عليها بلا مزيد كلفة . فالتصيير باُعتبار أنه لما كانت قابلةً لِما عدا ذلك ، فكأنها نُقِلت منه . وإن صح ما نقل عن ابن عباس [١] ، رضي الله عنه ، أن الأرض خلقت قبل السماء غيرَ مَدْحُوَّةٍ ، فدُحيت بعد خلقها ومُدَّت ، فأمرُ التصيير حينئذٍ

---

(١) هو الصحابي الجليل أبو العباس عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ ، وحبر الأمة وترجمان القرآن . كان عالماً بالحلال والحرام والعربية والانساب والشعر ، وله في الصحيحين نحو ١٦٦٠ حديثاً . ولد بمكة سنة ٣ قبل الهجرة . وتوفي في الطائف سنة ٦٨ هـ .

ظاهرٌ ، إلّا أن كل النـاس غير عالمين به . والصفة يجب أن تـكون معلومة للمخاطب ، ولا ينافي كُرِيَتَها كونُها فراشاً ؛ لأن الـكرة إذا عظمت ، كان كل قطعة منها كالسطح في افتراشه ، كما لا يخفى .

وسيأتي إقامة الدلائل على كُرِيَتِها ، وبيان ما يعارضها من ظواهر النصوص ، وتوجيه ذلك .

واختار سبحانه لفظ (السماء) على السماوات ، موافقة للفظ الأرض ، وليس في التصريح بتعددها هنا كثير نفع . ومع هذا يحتمل أن يراد بها مجموع السماوات ، وكل طبقة وجهة منها .

و (البناء) في الأصل : مصدر ، أُطلق على المبنيّ ، بيتاً كان أو قبة أوخِباءً أو طِرافاً ، ومنه قولهم : بنى فلانٌ بأهله ، أو على أهله ، خلافاً للحريري [1]؛ لأنهم كانوا إذا تزوّجوا ضربوا خباءً جديداً ، ليدخلوا على العروس فيه .

والمراد بكون السماء بناءً أنّها كالقبة المضروبة ، أو أنها كالسقف للأرض . ويقال لسقف البيت بناء ، ورُوِيَ هذا عن ابن عباس .

والمراد من السماء في قوله : (وأنزل من السماء ماءً) جهةُ العلوّ ، أو السحاب. وإرادةُ الفلك المخصوص — بناءً على الظواهر — غيرُ بعيدةٍ ، نظراً إلى قدرة

---

(١) في كتابه درة الغواص (الأثري) .

(١) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمـد بن عثمان ، الحريري البصري ، صاحب المقامات المشهورة . كان عالماً باللغة والأدب متقدماً في الكتابة ، ومن آثاره « المقـامات » و « درة الغواص في أوهام الخواص » و « ديوان رسائل » و « ديوان شعر » . ولد قرب البصرة سنة ٤٤٦ هـ . وتوفي فيها سنة ٥١٦ .

الملك القادر ، جلّ جلالُهُ ، وسمت عن مدارك العقل أفعاله . إلّا أن الشائع أن الشمس إذا سامتت بعض البحار والبراري، أثارت من البحار بخاراً رطباً ، ومن البراري يابساً . فإذا صعد البخار إلى طبقة الهواء الثالثة ، تكاثف . فإن لم يكن البرد قوياً ، أجتمع وتقاطر، لثقله بالتكاثف . فالمجتمع سحاب ، والمتقاطر مطر . وإن كان البرد قوياً ، كان ثلجاً وبَرَداً ، وقد لا ينعقد ، ويسمى ضَباباً . وعلى هذا يراد بالنزول من السماء نشوؤه من أسباب سماوية ، وتأثيرات أثيرية ، فهي مبدأ مجازيّ له . على أنّ مَنِ أنجاب عن عين بصيرته سحاب الجهل ، رأى أن مافي هٰذا العالم السفلي نازل من عرش الإرادة وسماء القدرة ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، بواسطة أو بغير واسطة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وإنْ من شيء إلّا عِنْدَنا خزائنه ، وما ننزّلُهُ إلّا بِقَدَرٍ معلومٍ) . بل ، مَنْ علم أنّ الله سبحانه في السماء ، على المعنى الذي أراده وبالوصف الذي يليق به مع التنزيه اللائق بجلال ذاته تعالى ، صحّ له أنْ يقول : إنَّ ما في العالمين من تلك السماء ، ونسبة نزوله إلى غيرها أحياناً ، لاعتبارات ظاهرة ، وهي راجعة إليه في الآخرة .

* * *

ومنها قوله تعالى : (هو الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعاً ، ثُمَّ أسْتوٰى إلى السماء فسوّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ ، وهو بكلِّ شيء عليمٌ) (٢٩) .

تفسير هذه الآية :

(أستوىٰ) أي علا إليها وأرتفع من غير تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تحديد ،

قاله الربيع[1] . أو قصد إليها بإرادته قصداً سويًّا ، بلا صارف يَلْويه ، ولا عاطف يَثْنيه ، من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل ، إذا قصده قصداً مستوياً ، من غير أن يلوي على شيء ، قاله الفرّاء[2] .

والمراد بـ (السماء) الأجرام العلوية ، أو جهة العلوّ .

والناس مختلفون في خلق السماء وما فيها ، والأرضِ وما فيها ، باعتبار التقدم والتأخّر ، لتعارُضِ الظواهر في ذلك .

فذهب بعضهم إلى تقدم خلق السماوات ؛ لقوله تعالى[3] : (أأنتم أشدُّ خلقاً ، أم السماء ؟ بَنَاها (27) رَفَع سمكها فسوّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وأخرج ضُحاها (29) والأرضَ بعدَ ذلك دَحَاها (30) : أخرج منها ماءها ومَرْعَاها (31) والجبالَ أَرْسَاها (32) متاعاً لكم ولأنعامكم)(33) .

وذهب آخرون إلى تقدّم خلق الأرض ، لقوله تعالى[4] : (قل : أإنّكم لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يومَيْنِ وتجعلونَ للهِ أنداداً ذلك رَبُّ

---

(١) هو الربيع بن أنس من بكر بن وائل من أنفسهم – كما يقول ابن سعد في الطبقات – ومن سكان البصرة . لقي بعض أصحاب الرسول ﷺ ، وتوفي باحدى قرى مرو في خلافة أبي جعفر المنصور .

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور ، المعروف بالفراء ، إمام الكوفيين في النحو واللغة والأدب . ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ وتوفي في طريق مكة سنة ٢٠٧ . له مصنفات متعددة منها : « معاني القرآن »

(٣) سورة النازعات ٧٩ .

(٤) سورة فصلت وتسمى حم السجدة ٤١ .

العالمين [٩] وجَعَلَ فيها رَواسيَ من فوقِها ، وبارك فيها ، وَقَدَّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيّامٍ ، سواءً للسائلين [١٠] ثم أستوى إلى السماءِ وهي دُخَانٌ فقال لها وللأرضِ : ائتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً ، قالَتا أتينا طائِعينَ [١١] فقضاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ في يَوْمَيْنِ ، وأَوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها . . .) [١٢] .

وجمع بعضهم فقال : إنّ قوله : (أخرج منها ماءها) بدل ، أو عطف بيان لقوله : (دحاها) أي بسطها ، مبيّن للمراد منه . فيكون تأخّرها ليس بمعنى تأخّر ذاتها ، بل بمعنى تأخّر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه ، بل خلقُ التمتّع والاُنتفاع به . فإنّ البَعْدية كما تكون باُعتبار نفس الشيء ، تكون باُعتبار جزئه الأخير وقيده المذكور ، كما لو قلتَ : بعثتُ إليك رسولاً ، ثم كنتَ بعثت فلاناً لينظر مايبلغه . فبعثُ الثاني وإن تقدم ، لٰكنْ ما بُعث لأجله متأخر ، فجُعل نفسُه متأخراً .

وما رواه الحاكم [١] والبيهقيّ [٢] عن اُبن عباس في التوفيق بين الآيتين ، يشير إلى هذا . ولا يعارضه ما رواه ابن جرير [٣] وغيره ، وصححوه عنه أيضاً ،

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي ، النيسابوري المعروف بالحاكم ، أحد أئمة الحديث المعدودين ، ولد في نيسابور سنة ٣٢١ هـ . وتوفي سنة ٤٠٥هـ ومن أشهر مؤلفاته المستدرك على الصحيحين .

(٢) البيهقي : هو أحمد بن الحسين البيهقي أحد أئمة الحديث . ولد في خسرو جرد بنيسابور سنة ٣٨٤هـ. وتوفي في نيسابور سنة ٤٥٨هـ بعد أن طوّف ببغداد والكوفة ومكة وغيرها . له مؤلفات كثيرة أهمها « السنن الكبرى » في عشر مجلدات ضخمة ، وهو أوسع السنن المعروفة .

(٣) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الامام المفسر المؤرخ الثقة . ولد في طبرستان سنة ٢٢٤ هـ وتوفي في بغداد سنة ٣١٠هـ. ومن آثاره « أخبار

أن اليهود أتت النبيَّ ، ﷺ ، فسألته عن خلق السماوات والأرض ، فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يومَ الثلاثاء ، وخلق يومَ الأربعاء الشجر والمدائن والعُمران والخراب ، فهذه أربعة ، فقال تعالى : (أإنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين — إلى قوله : سواءً للسائلين) ، وخلق يومَ الخميس السماء ، وخلق يومَ الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة .

وإنما قلنا (ولا يعارضه) إلى آخره ، لجواز أن يحمل على أنه خلق مادةَ ذلك وأصولَه ؛ إذْ لا يتصوَّر المدائن والعمران والخراب قبل ، فعطفه عليه قرينة لذلك .

واستشكل الرازي [1] تأخّر التدحية عن خلق السماء ، وقال : إن الأرض جسم عظيم ، فامتنع انفكاك خلقها عن التدحية . فإذا كانت التدحية متأخرة ، كان خلقها أيضاً متأخراً .

وهذا غفلة منه ؛ لأن من يقول بتأخر دَحْوِها عن خلقها ، لا يقول بعظمها ابتداء ، بل يقول : إنها في أول الخلق كانت كهيئة الفِهْر ، ثم دحيت ، فيتحقق الانفكاك ، ويصح تأخّر دحوها عن خلقها .

الرسل والملوك » المعروف « بتاريخ الطبري » و « جامع البيان في تفسير القرآن » المعروف بتفسير الطبري أيضاً .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي القرشي . كان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية وعلوم الأوائل ، إماماً في التفسير ، وله مؤلفات كثيرة في التوحيد والأصول والعربية والكلام والفلسفة والعلوم والطب . أصله من طبرستان وولد في الري ـ وإليها نسبته ـ سنة ٥٤٤ هـ . وتوفي في هراة سنة ٦٠٦هـ ومن أهم آثاره تفسيره الكبير .

وقوله : إن خلق الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوّةً ، لا يخفى دفعه بناءً على أن المراد بذلك خلق الموادّ والأصول ، لا خلق الأشياء فيها كما هو اليوم .

وقال بعض المحققين : اختلف المفسرون في أنّ خلق السماء مقدَّمٌ على خلق الأرض أو مؤخر نقل الإمام الواحديّ[1] عن مُقاتلٍ[2] الأوّل ، واُختاره المحققون ، ولم يختلفوا في أن جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع ، بل اُتفقوا عليه .

فحينئذٍ يجعل (الخلق) في الآية الكريمة بمعنى التقدير لا الإيجاد ، أو بمعناه ويقدر الإرادة ، ويكون المعنى : أراد خلق ما في الأرض جميعاً لكم ، على حدِّ (إذا قمتم إلى الصلاة) و (إذا قرأتَ القرآنَ) ، ولا يخالفه قوله تعالى : (والأرضَ بعد ذلك دحاها) ، فإنّ المتقدم على خلق السماء إنما هو تقدير الارض وجميع ما فيها ، أو إرادة ايجادها ، والمتأخر عن خلق السماء إيجاد الأرض وجميع ما فيها ، فلا إشْكالَ .

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية ، الواحدي ، كان عالماً بالأدب إماماً في التأويل . من آثاره : « اسباب النزول » و « البسيط » و « الوسيط » و « الوجيز » في التفسير ، و « شرح ديوان المتنبي » . ولد في نيسابور وتوفي فيها سنة ٤٦٨ هـ .

(٢) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء ، البلخي أحد أعلام المفسرين . وقد توفي في البصرة سنة ١٥٠ هـ . وله مؤلفات في التفسير ، وبعض علوم القرآن ، إلا أنه كان متروك الحديث .

وأما قوله سبحانه وتعالى : (خلق الأرضَ في يومَيْنِ) ، فعلى تقدير الإرادة ، والمعنى أراد خلق الأرض .

وكذا قوله تعالى : (وجعل فيهـا رواسيَ) ينبغي أن يكون بمعنى أراد أن يجعل . ويؤيد ذلك قولُه تعالى : (فقال لهـا وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً ، قالتا : أتينا طائعين) ، فإن الظاهر أن المراد أتينا في الوجود . ولو كانت الأرض موجودة سابقة ، لماصحّ هذا .

فكأنه سبحانه قال : أإنـكم لتـكفرون بالذي أراد إيجاد الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام ، ثم قصد إلى السماء ، فتعلّقت إرادته بإيجاد السماء والأرض ، فأطاعا بأمر التكوين ، فأوجد سبع سماوات في يومين ، وأوجد الأرض وما فيها في أربعة أيام .

بقي ها هنا بيان النكتة في تغيير الأسلوب ، حيث قدم في الظاهر ها هنا وفي (حم السجدة) خلقَ الأرض وما فيها على خلق السماوات ، وعكسَ في (النازعات). ولعلّ ذلك لأنّ المقام في الأوّلين مقام الامتنان ، فمقتضاه تقديم ما هو نعمة ، نظراً إلى المخاطَبين . فكأنه سبحانه وتعالى وهو الذي دبر أمركم قبل خلق السماء ، ثم خلق السماء . والمقـام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة ، فمقتضاه تقديم ما هو أدلّ على كمالها .

هذا ، والذي يفهم من بعض عبارات القوم أن المحدد ، ويقال له سماء أيضاً ، مخلوق قبل الأرض وما فيها ، وأن الأرض نفسها خلقت بعدُ . ثم بعد خلقهـا خلقت السماوات السبع ، ثم بعد السبع خلق ما في الأرض من معادنَ ونبات . ثم ظهر عالم الحيوان . ثم عالم الإنسان .

فمعنى قوله تعالى : (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) حينئذٍ ، قدره ؛ أو أراد إيجاده ، أو أوجد موادّه .

ومعنى قوله تعالى : (وجعل فيها رواسي) إلى آخره في الآية الأخرى ، على نحو هذا .

وقوله تعالى : (وخلق الأرض) فيها على ظاهره ، ولا يأباه قوله سبحانه : (فقال لها وللأرض : أئتيا . .) إلى آخره ، لجواز حمله على معنى أئتيا بما خلقت فيكما من التأثير والتأثّر ، وإبراز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة ، أو إتيان السماء حدوثها ، وإتيان الأرض أن تصير مدحوّةً ، أو لتأتِ كل منكما الأخرى في حدوث ما أُريد توليده منكما .

وبعد هذا كله ، لا يخلو البحث من صعوبة ، وما زال الناس يستصعبونه من عهد الصحابة إلى الآن . وسنعود إليه مرةً أُخرى إن شاء الله تعالى .

ومعنى (سوّاهن : أتمّهنّ ، وقوّمهنّ ، وخلقهنّ أبتداءً مصوناتٍ عن العوج والفطور ، لا أنه سبحانه وتعالى سوّاهنّ بعد أن لم يكن كذلك . فهو على حد قولهم : « ضيق فم البئر ووسع الدار » .

لا يقال : إن أرباب الأرصاد المتقدمين أثبتوا تسعة أفلاك ، وهل هي إلا سماوات ؟ لأنا نقول : هم لا يزالون شاكّين في النقصان والزيادة . فإن ما وجدوه من الحركات يمكن ضبطها بثمانية وسبعة ، بل بواحد . وبعضهم أثبتوا بين فلك الثوابت والأطلس كرةً لضبط الميل الكُلّيّ .

وقال بعض محققيهم : لم يتبين لي إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة ، أو كرات منطوية بعضها على بعض .

وأطال الإمام الرازي الـكلام في ذلك .

على أنه إن صح ما شاع ، فليس في الآية ما يدل على نفي الزوائد بناء على ما أختاره الرازي من أن مفهوم العدد ليس بحجة .

وكلام البيضاوي[1] في تفسيره ، يشير إليه خلافاً لما في (منهاجه) الموافق لما عليه الإمام الشافعي ، ونقله عنه الغزالي[2] في (المنخول) .

وذكر عبد الحكيم السيالكوتي الهندي[3] أن الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد ، والخلاف في ذلك مشهور .

وإذا قلنا بكُرِيَّةِ العرش والكرسيّ ، لم يبق كلام

---

(١) هو العلامة المفسر عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي . صاحب « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » المعروف بتفسير البيضاوي. وله مؤلفات غيره في التوحيد والأصول والعربية والتاريخ . ولد بفارس قرب شيراز وتوفي في تبريز سنة ٦٨٥ .

(٢) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بحجة الاسلام ولد سنة ٤٥٠ هـ . وتوفي سنة ٥٠٥ . وله عدد كبير من المؤلفات في العقيدة والفقه والاصول والفلسفة والتصوف.. ومن أشهر هذه المؤلفات : كتابه « إحياء علوم الدين » ، وقد خرج أحاديثه الحافظ العراقي .

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي (نسبة إلى سيالكوت من أعمال لاهور) له آثار في العقيدة والتفسير والمنطق والعربية تدل على علمه وفضله منها : « عقائد السيالكوتي » و « حاشية على تفسير البيضاوي » و « حاشية على الجرجاني » و « على القطب ، على الشمسية » في المنطق و « حاشية على المطول » في البلاغة . وقد توفي سنة ١٠٦٧ هـ .

وضمير (فسوّاهنّ) للسماء إن فسرت بالأجرام .

وأما ما ذهب إليه متأخرِ الفلاسفة ، فلا سماء عندهم ، بل الأجرام العلوية قائمة بالجاذبية ؛ فإن الشمس وسائر الكواكب السيارات عليها ، بل وجميع الثوابت ليست مركوزة في جسم من الأجسام ، والآيات القرآنية وإن لم يكن فيها ما يدل على خلاف ما ذكر في الكواكب ، بل ربما كان فيها ما يدل على ما يؤيد مذهب المتأخرين . فإن النصوص تشعر بأن ما نشاهده من الحركات ، ليست بالأجرام اشتملت على الكواكب ، مثل قوله سبحانه : (لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القَمَرَ ، ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحُون) .

نعم المناقضة والمخالفة بين مذهب المتقدمين والمتأخرين في هذا الباب ، فان المتقدمين قالوا : إن العالم الجسماني كرة منضدة من ثلاث عشرةَ كرةً ، ومركز العالم مركز كرة الأرض . غير أن المتأخرين لم يثبتوا من السماوات سبعاً ، ولا أكثر من ذلك ولا أنقص . والمتشرعون منهم قالوا : المراد من السماوات السبع أصناف أجرام الكواكب ، فإنهم جعلوها على سبعة أصناف في المقدار ، وذلك هو الضلال البعيد ، فلا يلزم أن يكون كل مالم تصل اليه أيدي أفكارهم هو في حيّز العدم (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتِهم تأويله) . فان الرسل ،صلوات الله وسلامه عليهم ، كلهم أخبروا بوجود السماوات في هذا الفضاء ، الذي ليس له مبدأ ولا أنتهاء . وهذا خاتمهم ، صلوات الله عليه ، قد ذكر ما ذكر مما رأى في معراجه في السماوات ، واستفتاحه لها بواسطة جبريل : كل ذلك يبطل تأويل من أوّلَ .

وسيأتي في ذلك كلام مفصل ، وماذكرناه هنا كافٍ في المقام ، والله وليُّ التوفيق .

* * *

ومنها قوله تعالى : (يسألونك عن الاهلّة ، قُل : هيَ مَواقيتُ للناس والحَجِ ...) (١٨٩)

ذكر أهل التفسير: أن معاذ بن جبل[1] وثعلبة بن غُنم[2] ، قالا : يارسولَ اللهِ ! ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال واحدة ؟ فنزلت .

والسؤال يحتمل أن يكون عن الغاية والحكمة ، وأن يكون عن السبب والعلة ، ولا نصّ في الآية والخبر على أحدهما .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي . صاحب رسول الله ﷺ ، ومن أعلم المسلمين بالحلال والحرام . وأحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول . ولد سنة ٢٠ ق هـ . وتوفي سنة ١٨ بناحية الاردن ودفن في الغور .

(٢) ثعلبة بن غُنم كذا في الأصل ، والصواب ثعلبة بن عنمة ـ بفتح العين والنون ، وغنم أحد أجداده لا والده ـ كما في « الاصابة » لابن حجر و « الاستيعاب » لابن عبد البر . وهو أنصاري خزرجي شهد بدراً وقتل شهيداً يوم الخندق أو العقبة على خلاف . وقد ذكر ابن الكلبي أنه ممن سأل عن الهلال كيف يبدو صغيراً ثم يكبر فنزل قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة ـ الآية)

أما الملفوظ من الآية ، فظاهر . وأما المحذوف ، فيحتمل أن يقدر : ما سبب اختلافها ، وأن يقدر : ما حكمته .

وهي وإن كانت في الظاهر سؤالاً عن التعدّد ، الا أنها في الحقيقة متضمنة للسؤال عن اختلاف التشكلات النورية ؛ لأن التعدد يتبع اختلافها ، إذْ لو كان الهلال على شكل واحد ، لايحصل التعدد كما لا يخفى .

وأما الخبر ، فلأنّ (ما) فيه يسأل بها عن الجنس وحقيقته . فالمسؤول [عنه] حينئذٍ حقيقة أمر الهلال وشأنه حالَ اختلاف تشكلاته النورية ، ثم عوده الى ما كانَ عليه . وذلك الأمر المسؤول عن حقيقته ، يحتمل ذينك الأمرين بلاريب.

فعلى الأول يكون الجواب بقوله : (قُلْ : هي مواقيتُ للناسِ والحج) مطابقاً مبيناً للحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام ، المذكرة لنعمة الله تعالى ومَزيد رأفته . وهي أن تكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدينية ، ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ، ومعالم للعبادات يعرف بها أوقاتها كالصيام والإفطار ، وخصوصاً الحج ، فان الوقت مراعى فيه أداءً وقضاءً .

ولو كان الهلال مدوّراً كالشمس ، أو ملازماً حالةً واحدة ، لم يكد يتيسر التوقيت به ، ولم يذكر صلى الله تعالى عليه وسلّم الحكمةَ الباطنة لذلك ، مثل كون اختلاف تشكلاته سبباً عادياً أو جعلياً ، لاختلاف أحوال المواليد العنصرية كما بُيّن في محله ؛ لأنه مما لم يطلع عليه كل أحد .

وعلى الثاني يكون من الأسلوب الحكيم ، ويسمى : القول بالموجب. وهو: تلقّي السائل بغيرما يتطلب ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله

واختاره السكاكي[1] وجماعة . فيكون في هذا الجواب إشارة الى أن الأولى : على تقدير وقوع السؤال ، ان يسألوا عن الحكمة ، لاعن السبب ؛ لأنه لايتعلق به صلاح معاشهم ومَعادهم ، والنبيّ — صلى الله تعالى عليه وسلّم — إنما بُعث لبيان ذلك .

وبعض علماء الهيئة اليونانية قال : ليسوا ممن يطلع على دقائق علم الهيئةالموقوفة على الأرصاد والأدلة الفلسفية .

وهذا وهم ؛ لأن ذلك على فرض تسليمه في حق أولئك المَشّائين في ركاب النبوة ، والمرتاضين في رواق الفتوّة ، والفائزين باشراق الأنوار ، والمطلعين بأرصاد قلوبهم على دقائق الأسرار ، وإن لم يكن نقصاً من قدرهم الا أنه يدلّ على أن سبب الاختلاف مابيّنَ في علم الهيئة من بُعد القمر عن الشمس وقربه اليها .

وهو باطل عند أهل الشريعة ، فانه مبني على أمور لم يثبت جزماً شيء منها . غايةُ الأمر أن الفلاسفة الأوَل تخيّلوها موافقة . فما أبدعه الحكيم المطلق كما يشير اليه كلام الشيخ محي الدين[2] — رحمه الله — في (فتوحاته) ، مما ينادي على

(١) هو أبو يعقوب ، سراج الدين ، يوسف بن أبي بكر ، السكاكي . عالم باللغة والأدب . ولد في خوارزم سنة ٥٥٥ هـ . وتوفي فيها سنة ٦٢٦ . ومن آثاره « مفتاح العلوم »

(٢) هو أبو بكر محمد بن علي ، المعروف بمحي الدين بن عربي ، والملقب بالشيخ الأكبر . ولد بالأندلس سنة ٥٦٠ واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة٦٣٨ وهو – كما يقول عنه الذهبي – قدوة القائلين بوحدة الوجود . وله نحو (٤٠٠) كتاب ورسالة فيها كثير من الكفر والضلال ، ومن أشهرها : « الفتوحات المكية » وقد طبعت مرتين في أربعة مجلدات كبيرة

أن ما ذهبوا اليه مجرد تخيل ، لاتأباه الحكمة وليس مطابقاً لما في نفس الأمر أن المتأخرين ممن انتظم في سلك الفلاسفة ، كهرشل الحكيم[1] وأتباعه إصحاب الرصد والزيج الجديد ، تخيلوا خلاف ماذهب اليه الأولون في أمر الهيئة، وقالوا : بأن الشمس مركز ، والأرض وكذا النجوم دائرة حولها ، وبنوا حكم الكسوف والخسوف ونحوه على ذلك ، وبرهنوا عليه ، وردّوا مخالفيه ، ولم يتخلف شيء من أحكامهم في هذا الباب ، بل يقع بحسب مايقع مايقوله الأولون مبنياً على زعمهم .

فحيث اتفقت الأحكام مع اختلاف المَبْنَيَيْنِ وتضادّ المنشأيْن وردّ أحد الزّعمَيْنِ بالآخر ، ارتفع الوثوق بكلا المذهبين ، ووجب الرجوع الى العلم المقتبس من مشكاة الرسالة ، والمنقدح من أنوار شمس السيادة والبسالة ، والاعتمادُ على ماقاله الشارع الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعدَ إمعان النظر فيه ، وحمله على أحسن معانيه !

واذا أمكن الجمع بين ما يقوله الفلاسفة كيف كانوا مما يقبله العقل ، وبين مايقوله سيد الحكماء ونور أهل الأرض والسماء ، فلا بأس به ، بل هو الأليق الأحرى في دفع الشكوك التي كثيراً ما تعرض لضعفاء المؤمنين .

واذا لم يكن ذلك ، فعليك بما دارت عليه أفلاك الشرع ، وتنزّلت به أملاك الحق .

---

(١) وليم هيرشل (Hershell) هو العالم الفلكي الانكليزي الذي اكتشف « اورانوس» وتوابعه، وتوابع « زحل » ولد سنة ١٧٣٨م ومات سنة ١٨٢٢م .

وسنتكلم فيما يتعلق بأحكام القمر فيما يناسبها من الآيات الآتية إن شاء الله تعالى .

* * *

ومنها قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّموات والارض، ولا يَؤُودُه حِفْظُهما ، وهو العَلِيُّ العظيمُ) (٢٥٥) .

تفسير هذه الآية :

(الكرسي) : جسم بين يدي العرش محيط بالسماوات والارض . وقد أخرج جرير [١] وابن المنذر [٢] عن ابن عباس ، رضي الله تعالى عنهما ، قال : « لو انّ السماوات السبع والأرضين السبع بُسطن ثم وصلن، بعضهن الى بعض ، ما كنّ في سَعَته ــ أى الكرسي ــ الا بمنزلة الحلقة بالمفازة » .

وهو غير العرش كما يدل عليه ما أخرجه ابن جرير عن أبي ذرّ [٣] أنه سأل النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الكرسي، فقال: « يا أبا ذرّ ، ماالسماوات

---

(١) هو ــ على الارجح ــ جرير بن عبد الحميد بن قرط الرازي الضبي . كان محدثا ثقة يرحل إليه . ولد في الري سنة ١١٠ هـ وتوفي فيها سنة ١٨٨ هـ .

(٢) هو ــ على الارجح ــ أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري حافظ فقيه مجتهد . ولد سنة ٢٤٢ هـ . وتوفي سنة ٣١٩ ومن مؤلفاته : « تفسيرالقرآن» و « الاوسط في السنن والاجماع والاختلاف » و « المبسوط » في الفقه .

(٣) هو أبو ذرّ جندب بن جنادة الغفاري صاحب رسول الله ﷺ وأحد السابقين الأولين للاسلام.توفي في الربدة ــ أحدى قرى المدينة ــ سنة ٣٢ هـ في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

السبع والأرضون السبع عند الكرسي الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » . وعن ابن عباس ، قال : سُئل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن قوله تعالى : وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات والأرض. قال : (كرسيه) موضع قدميه، والعرش لايقدر قدره . وقيل : هو العرش نفسه ، ونُسب ذلك الى الحسن [1] . وقيل : قدرة الله تعالى وقيل : تدبيره . وقيل : ملك من ملائكته . وقيل : هو مجاز عن العلم ، من تسمية الشيء بمكانه؛ لأن الكرسي مكان العالم الذي فيه العلم، فيكون مكاناً للعلم بتبعيته ، لأن العرض يتبع المحل في التحيّز ، حتى ذهبوا الى أنه معنى قيام العرض بالمحل، وحُكي ذلك عن ابن عباس . وقيل : عن الملك ، أخذاً من كرسي الملك وقيل : أصل الكرسي ، ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد . والكلام مسوق على سبيل التمثيل لعظمته ـ تعالى شأنه ـ وسَعةِ سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبةً . ففي الكلام أستعارة تمثيلية، وليس ثمة كرسي ولا قاعد ولا قعود . وهذا الذي أختاره الجم الغفير من الخلف ، فراراً من توهم التجسيم ، وحملوا الأحاديث التي ظاهرها حمل الكرسي على الجسم المحيط ، على مثل ذلك ، ولا سيما الأحاديث التي فيها ذكر القدم كما قدمنا، وكالحديث الذي أخرجه البيهقي وغيره عن أبي موسى الأشعري: [2]

(١) هو التابعي الجليل ، أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ، الامام الزاهد الشجاع البليغ . ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ . وتوفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ . وقد حفظت لنا الكتب كثيراً من أخباره وكلماته السائرة .

(٢) هو أبو موسى عبد الله بن قيس الاشعري ، القحطاني ، صاحب رسول الله ﷺ ، وأحد ولاة عمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم ، وأحد الحكمين في صفين . ولد باليمن وتوفي في الكوفة سنة ٤٤ هـ .

« الـكرسيّ موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل الجديد اذا ركب عليه من يثقله ، مايفضل منه أربع أصابـع » .

وأنت تعلم أن ذلك وأمثاله ، ليس بالداعي القوي لنفي الـكرسي بالـكلية . فالحق أنه ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة ، و توهم التجسيم لا يُعبَأ به ، و إلّا لزم نفي الـكثير من الصفات ، وهو بمعزل عن اتّباع الشارع والتسليم له .

وأكثر السلف الصالح ، جعلوا ذلك من المتشابه الذي لا يحيطون به علماً ، وفوضوا علمه الى الله تعالى ، مع القول بغاية التنزيه والتقديس له تعالى شأنه .

و القائلون بالظاهر من الصوفية ، لم يشـكل عليهم شيء من أمثال ذلك .وقد ذكر بعض العارفين منهم : أن (الـكرسي)عبارة عن تجلّي جملة الصفات الفعلية ، فهو مظهر إلـهي ، ومحل نفوذ الأمر والنهي والإيجاد والإعدام المعبر عنهما بالقدمين. وقد وسع السماوات والأرض وسع وجود عينيّ ، ووسع حكمي ؛ لأن وجودهما المقيد من آثار الصفات الفعلية ، الذي هو مظهر لها . وليست القدمان في الأحاديث عبارة عن قدمي الرجلين ومحل النعلين ، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً ، ولا الأطيط عبارة عما تسمعه وتفهمه في الشـاهد ، بل هو إن لم تفوض علمه الى العليم الخبير إشارة الى بروز الأشياء المتضادّة أو اجتماعها في ذلك المظهر الذي هو منشأ التفصيل والإبهام ، ومحل الإيجاد والإعدام ، ومركز الضر والنفع والتفريق والجمع . ومعنى « ما يفضل منه أربـع أصابـع » ـ إن كان الضمير راجعاً الى الرجل ظاهر . وإن كان راجعاً الى الـكرسي ، فهو إشارة الى وجود حضرات هي مظاهر لبعض الأسماء ، لم تبرز الى عالم الحسّ ، ولم يمكن أن يراها الا من ولد مرتين . وليس المراد من الأصابـع الأربع ما تعرفه من نفسك .

وللصوفية في هذا المقام كلام غير هذا ، ولعلنا نشير الى بعض منه إن شاء الله تعالى .

وأنا أقول غيرَ مبالٍ بجهول : إن غالب هذه الأقوال ليست برطب اذا عدت ولا يبس ، والمعوَّل عليه ما أراد الله تعالى ورسوله بظاهر كلامهما (رَبَّنا آمنّا بما أنزلتَ ، واتَّبعْنا الرسولَ ، فاكْتُبْنا مَعَ الشاهدين) .

سورة آل عمران

في هذه السورة قوله تعالى :

(إنّ في خَلْقِ السمٰواتِ والأرض واُختلافِ اللّيْلِ والنهار لآيات لأُولي الألباب (١٩٠) الذينَ يذكُرونَ اللهَ قياماً وقُعُوداً وعلى جُنوبِهم ، ويتفكّرون في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ . رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطلاً ، سُبْحانَكَ ، فَقِنا عَذابَ النّارِ) (١٩١) .

هذه الآية كثيراً ما يصدر مصنفو علم الهيئة بها كتبهم ، ظناً منهم أنها تنوّه بفنهم ، وتحث على الاُشتغال به .

وللرازي في تفسيرها كلام يوضح ما قلناه .

وقال غيره : (إن في خلق السماوات والأرض) أي في اُتحادها وإنشائهما على ماهما عليه من العجائب والبدائع ، (واُختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما ومجيء كل منهما خلف الآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها ، التابعَيْن لسباحتها في بحر قدرته سبحانه بحسب إرادته .

وكون ذلك تابعاً لحركة السماوات وسكون الأرض ، مخالف لما ذهب اليه جمهور أهل السنة من المحدثين وغيرهم : من سكون السماوات ، وتحرك النجوم أنفسها

بتقدير الله تعالى العليم . وهو موافق ـــ من بعض الوجوه ـــ لما ذهب اليه متأخرو الفلاسفة من أن مركز السيارات هو الشمس .

وقال الشيخ محي الدين بن عربي : ان الله تعالى جعل هذه السماوات ساكنة، وخلق فيهانجوماً تسبح بها ، وجعل لها في سباحتها حركات مقدرة لاتزيد ولاتنقص،

وجعلها تسير في جرم السماء الذي هو مساحتها ، فتخرق الهواء المماسّ لها ، فيحدث بسيرها أصوات ونغمات مطربة ، لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الافلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات السماوية .

وجعل أصحاب علم الهيئة للأفلاك ترتيباً ممكناً في حكم العقل ، وجعلوا الكواكب فيه كالشامات على سطح الجسم .

وكل ما قالوه يعطيه ميزان حركاتها ، وإن الله تعالى لو فعل ذلك كما ذكروه ، لكان السيرُ السيرَ بعينه . ولذلك يصيبون في علم الكسوفات ونحوه .

وقالوا : إن السماوات كالأكر ، وإن الارض في جوفها . وذلك كله ترتيب وضعي يجوز في الإمكان غيره . وهم مصيبون في الأوزان ، مخطئون في أن الامر كما رتبوه .

قال : فليس الأمر الاّ على ما ذكرناه شهوداً . انتهى

ويؤيد دعوى: أنه يجوز في الإمكان غيره، ماذهب اليه أصحاب الزيج الجديد: من أن الشمس ساكنة ، لاتتحرك أصلاً ، وأنها مركز العالم ، وأن الأرض وكذا سائر السيارات والثوابت تتحرك عليها، وأقاموا على ذلك الأدلة والبراهين بزعمهم، وبنوا عليه الكسوف والخسوف ونحوهما ، ولم يتخلف شيء من ذلك .

فهذا يشعر بأنه لا قطعَ فيما ذهب اليه أصحاب الهيئة .

ويحتمل أن يراد بـ (أختلاف الليل والنهار) تفاوتهما بأزدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده بأختلاف حالة الشمس بالنسبة الينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة . أو في أختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة : إما في الطول والقصر ، فان البلاد القريبة من قطب الشمال : أيامها الصيفية أطول ، ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها .

وإما في أنفسهما ، فان كُرِيةَ الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً ، وفي مقابله نهاراً ، وفي بعضها صباحاً ، وفي بعضها ظهراً أو عصراً ، أو غير ذلك .

وهذا مما لا شبهة فيه عند كثير من الناس ، وليس بالبعيد . بل أختلاف الأوقات في الأماكن مشاهد محسوس ، لايختلف فيه أثنان .

الاّ أن في كرية الأرض أختلافاً ، فقد ذكر الشيخ محي الدين : أن الله تعالى بعد أن خلق الفلك المكوكب في جوف الفلك الأطلس ، خلق الأرض سبع طبقات ، وجعل كل أرض أصغر من الأخرى ، ليكون على كل أرض قبة سماء . فلما قدر خلقها ، وقدر فيها أقواتها ، وأكتسى الهواء صورة البخار الذي هو الدخان ، فتق ذلك الدخانَ سبع سماوات طِباقاً وأجساماً شفافة ، وجعلها على الأرضين كالقباب على كل أرض سماء أطرافها عليها نصف كرة ، وكرة الأرض لها كالبساط ، فهي مدحية ، دحاها من أجل السماء أن تكون عليها ، وجعل في كل سماء من هذه واحدة من الجواري على الترتيب المعروف . انتهى .

قال الجدّ [1] متعقباً : والقلب يميل الى الكرية ، والله لا يستحيي من الحق. قل : وما ذهب اليه الشيخ ، أمر شهودي ، وفيه الموافق والمخالف لما ذهب اليه معظم المحدثين وأكثر علماء الدين . والذي قطع به بعض المحققين أنه لم يجيء في الأحاديث الصحيحة المرفوعة ما يفصل أمر السماوات والأرض أتم تفصيل ، إذ ليست المسألة من المهمات في نظر الشارع، صلى الله تعالى عليه وسلم . والمهم في نظره منها ، واضح لامرية فيه ، وسبحان من لا يتعاصى قدرته شيء .

و(الليل) : واحد بمعنى جمع ، وواحدته ليلة ، مثل تمر وتمرة .

وقوله سبحانة : (لآيات لأولي الألباب) أي انها دلالات على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته . و (اولو الألباب) : أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الحس والوهم . ووجه دلالات المذكورات على وحدته تعالى أنها تدل على وجود الصانع دلالةَ الدخان على النار، لتغيرها المستلزم لحدوثها ، وأستنادها الى مؤثر قديم. ومتى دلت على ذلك ، لزم منه الوحدة. ووجه دلالتها على كمال علمه وقدرته أنها في غاية الإتقان ونهاية الإحكام لمن تأمل فيها ، وتفكر في ظاهرها وخافيها ؛ وذلك يستدعي كمال العلم والقدرة كما لا يخفى .

وأما قوله تعالى : (الذين يتفكرون في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النارِ) ، فقد فسرها ابنُ

---

(١) يعني بالجد - على الأرجح - جدّه . صاحب تفسير « روح المعاني » وهو أبو الثناء ، محمود شهاب الدين الألوسي ، عالم العراق في عصره . ولد سنة ١٢١٧ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ ، وله آثار عديدة في اللغة والأدب والفقه والتفسير .

القَيِّمِ [1] في كتابه (بدائع الفوائد) أحسن تفسير ، وأستدل بها على وجود الصانع والنبوّات ، وعلى المعاد والجنة والنار ، بأستدلال عجيب ليس من موضوع كتابنا هذا . فمن أراده ، فليرجع اليه .

---

(١) هو أبو عبد الله شمس الدين ، محمد بن أبي بكر الزُّرْعي الدمشقي ، الامام العالم الكبير ، ولد في دمشق سنة ٦٩١ هـ . وتوفي فيها سنة ٧٥١ . وقد سار في حياته على خطا شيخه الامام ابن تيمية مناصرةً للسنة وحرباً على البدعة وجرأة في الحق . مصنفاته كثيرة منها : « اعلام الموقعين » و « زاد المعاد » و « إغاثة اللهفان » .

سُورة الأنعَام

قال الله تعالى : (وهو الذي جَعَلَ لكم النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ . .) (٩٧)

المرادُ بـ (النجوم) : ما عدا النَّيِّرَيْنِ ؛ لأنها التي بها الاُهتداء ، ولأنّ النجم يُخَصُّ ـــ في العُرف ـــ بما عداهما وُجِّوز أن يدخلا فيها ، فيكون هذا بياناً لفائدتها العامة ، إثر بيان فائدتهما الخاصة.

والمنجمون يقسمون النجوم الى ثوابت وسيّارات . والسيارات عند المتقدمين سبع بإجماعهم . وعند المنجمين اليوم ، وهم أهل الهيئة الجديدة ، أن الشمس في وسط الكواكب التي تدور حولها، وأنها أعظم من الأرض بألف ألف مرة وثلاث مئة وثمانية وعشرين ألف مرة ، وأن لها حركةً على نفسها . وقد اُستنبط بعض علمائهم من تحوّل كَلَفها الذي يظهر على ظهرها ، ورجوعه في أزمنة مخصوصه ، أنها تدور على نفسها في خمسة وعشرين يوماً واثنتيْ عشرة ساعة ، وجزموا بأن ليس لها حركة حول الأرض ، بل للأرض حركة حولها ، وأن (الأرض) إحدى السّيارات .

وهي عندهم : عُطارد ، والزُّهَرَة ، و الأرض، والمِرّيخ ، ووسنة (وقد كشفها رجل منهم يقال له « أولبوس » في حدود سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف

للهجرة) ، ونبتون(وقد كشفها رجل منهم يقال له « هاردنق » في حدود سنة عشرين ومئتين وألف للهجرة) ، وسيرس (وقد كشفها رجل منهم يقال له « بياظى » في حدود سنة ست عشرة ومئتين وألف للهجرة) ، وبلاس (وقد كشفها « أولبوس » أيضاً في حدود سنة سبع عشرة ومئتين وألف) ، والمشتري ، وزُحَلُ ، وأورانوس (وقد كشفها رجل منهم يقال له « هرشل » في حدود سنة سبع وتسعين ومئة وألف للهجرة) .

ولم يعدوا (القمر) من السيارات ، بل من سيارات السيارات ؛ لأنه يدور حول الأرض ودَوَرانُها حول الشمس . وهو عندهم دون عظم الأرض بتسع وأربعين مرة ، وزعموا أن بعد الشمس عن الأرض أربعة وثلاثون ألف ألف فرسخ فرنسي ، وهو المقدر بمسافة ساعة وخمس مئة ألف فرسخ ، ومع هذا يصل نورها الينا في مدة ثماني دقائق وثلاث عشرة ثانية ، وأن البعد الأبعد للقمر عنها أحد وتسعون الفاً وأربع مئة وخمسون فرسخاً ، والبعد الأقرب له ثمانون ألفاً ومئة وخمسة فراسخ،فيكون البعد الأوسط نحو ستة وثمانين ألف فرسخ .

وكانوا يزعمون من قبلُ أن ليس للشمس حركة على كوكب آخر ، وإنما لها حركة على نفسها فقط ، ثم أدركوا أن لها حركة على كوكب من كواكب الثريا ، وجوزوا أن يكون لذلك الكوكب حركة على كوكب آخر أبعد منه، وهكذا الى مالا يعلمه الا الله تعالى.فإن سَعَةَ الجوّ غير متناهية عندهم، وفيه من الكواكب مالا يتناهى ايضاً وزعموا أن من هاتيك الكواكب مالا يصل نوره الى الأرض في مئة سنة، بل أكثر،مع شدة سرعة الضوء كما أشير اليه آنفاً في بيان حركة ضوء الشمس.

و(النجوم الثوابت) لايعلم عدتها الا الله تعالى ، والمرصود منها ألف وخمسة

وعشرون نجماً بإدخال (الضفيرة) . ومن أخرجها ، قال : هي ألف واثنان وعشرون نجماً . ورتبوا الثوابت على ست أقدار ، وسموها أقداراً متزايدة سدساً سدساً ، وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب : أعظم ، وأوسط ، وأصغر .

ولهم تقسيمات لها أُخَرُ ، باعتبارات أُخَر ، بنوا عليها مابنوا ، ولا يكاد يسلم لهم الا مالم يلزم منه محذور في الدين .

ومعنى (لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) أي في ظلمات الليل في البر والبحر ، أو في مشتبهات الطرق ، وسماها « ظلمات » على الاُستعارة .

وقد ذكر اُبن قُتَيْبَةَ [1] في (كتاب الأنواء) كيفية اُستدلال العرب بالنجوم ، والماهر فيه من قبائلهم . ولعلّنا نلم بذلك إن شاء الله تعالى .

وهذا إفراد لبعض منافعها بالذكر بحسب مايقتضيه المقام ، وإلاّ فهي أجدى من تفاريق العصا ، وهي ـ في جميع ما يترتب عليها ـ كسائر الباب .

أما تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل والأوضاع ونحو ذلك مما يتوصل الى مصلحة دينية ، فلا بأس به . والمنهيّ عنه من علوم النجوم ، ما يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان : يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب لاُقترانها وأفتراقها . وهذا علم اُستأثر الله تعالى به ، لايعلمه أحد غيره . فمن اُدعى علمه بذلك ، فهو مردود عليه .

---

(١) هو أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، الامام في اللغة والأدب . ولد ببغداد سنة ٢١٣ هـ وتوفي فيها سنة ٢٧٦ . وله مصنفات كثيرة منها : « أدب الكاتب » و « عيون الأخبار » و « تأويل مشكل القرآن » و « الأنواء » و (تأويل مختلف الحديث)

فأما من يقول: إن الاُقتران والاُفتراق، الذي هو كذا، جعله الله علامة بمقتضى ما اُطّردت به عادته الإلهية على وقوع كذا وقد يتخلف، فلا إثمَ عليه بذلك. وكذا الإخبار عما يدرك بطريق المشاهدة من علوم النجوم الذي يعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى وكم بقي من الوقت، فانه لا إثم فيه، بل هو فرض كفاية.

وأما مافي الصحيحين: « ان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، صلى صلاة الصبح في إثر ماء: أي مطر كان من الليل. فلما اُنصرف، أقبل على أصحابه، فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال — مُطرنا بفضل الله تعالى — فذاك مؤمن بي كافر بالكواكب، ومن قال — مُطرنا بِنَوْءِ كذا — فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب»، فقد قال أهل العلم — ومنهم اُبن قتيبة في كتاب الأنواء —: إنه محمول على ما اذا قال ذلك مريداً أن النوء هو المحدث. أما لو قال ذلك على معنى أن النوء علامة على نزول المطر، ومنزله هو الله تعالى وحده، فلا يكفر. لكن يكره له قول ذلك؛ لأنه من ألفاظ الكفر.

وفي (كتاب مفتاح دار السعادة) لاُبن القيم كلام مفصل في إبطال علم النجوم. وسنعود الى الكلام على ذلك فيما يناسبه من الآيات.

والمقصود أن الاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر، ليس في قواعد الهيئة الجديدة مايأبى هذه الآية، بل الكل متفقون على الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، ولهم في ذلك كتب وقواعد مشهورة يتخذها ربانو المراكب والجائلون في فيافي البراري، والله ولي التوفيق.

سورة الأعراف

قال الله تعالى فيها: (إنّ الذين كذّبوا بآياتِنا ، واستكبروا عنها ، لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ، ولا يدخُلُونَ الجنّةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ...) -٤٠-

تفسير هذه الآية :

عن أبي هريرة [1] ، رضي الله تعالى عنه « أن رسول الله ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : الميت تحضره الملائكة . فاذا كان الرجل صالحاً ، قال : أخرجي أيّتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أخرجي حميدةً ، وأبشري بروْحٍ وريحانٍ وربٍّ راضٍ غيرِ غضبان . فلا تزال يُقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها الى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أدخلي حميدةً ، وأبشري بروْح وريحان ورب راضٍ غير غضبان ، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تنتهي الى السماء السابعة » .

والحديث مشهور . وكون السماء لها أبواب تفتح للأعمال الصالحة والأرواح

---

(١) هو أبو هريرة ، عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واكثر الناس رواية عنه . ولد سنة ٢١ ق هـ. وتوفي سنة ٥٩ هـ في المدينة المنورة .

الطيبة ، قد تفتحت له أبواب القبول ، للنصوص الواردة فيه ، ومنها حديث المعراج. وهو ثابت في الكتب الصحيحة، وفيه ذكر أبواب السماء على وجه لا يقبل التأويل وهو أمر ممكن ، أخبر به الصادق ، فلا حاجة الى تأويله .

والمعترفون بالسماوات من الفلاسفة ، أنكروا أن يكون لها أبواب . قالوا : لأن السماء كرية ، لاتقبل الخرق والالتئام .

وهذا قولهم بأفواههم ، لايتم له دليل عند أهل الحق .

وظاهر كلام أهل الهيئة الجديدة جواز الخرق والالتئام على الأفلاك. لكنهم لايعترفون بوجود السماوات السبع على الوجه الذي نطقت به النصوص . فإن مثل هذه الدقائق لاتصل اليه يد أفكارهم القاصرة ، ولا لهم آلة يدركون بها حقائق الامور. بل إن مثل هذه الأمور ، لاتمكن الإحاطة بها ، والدخول في حقائقها ، إلا من أبواب النبوة والوحي الرباني ، والسلام على من أتبع الهدى .

* * *

ومنها قوله تعالى :(إن ربَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السمٰواتِ والارضَ في ستّةِ أيامٍ ثم استوى على العرشِ ، يُغْشِي اللَّيلَ النَهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً ، والشمسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مسخّراتٍ بأمرِهِ . ألا ، لَهُ الخلْقُ والأَمْرُ ، تباركَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ) — ٥٤ — .

تفسير مثل هذه الآية سبق في سورة البقرة ، فنفسرها على سبيل الاختصار ، فنقول : (إن ربكم) أي خالقكم ومالككم (الذي خلق السموات) السبع

(والأرض) بما فيها (في ستة أيام) . والمفسرون قالوا : المراد بالأيامِ الأوقاتُ ، أي في ستة أوقات ، أو في مقدار ستة أيام، على حذف مضاف ، كقوله سبحانه : (لهم رزقهم فيها بكرةً وعشيا) . فإن المتعارف أن اليوم من طلوع الشمس الى غروبها ، ولم تكن هي حينئذ موجودةً . نعم ، العرش — وهو المحدّد على المشهور عند الفلاسفة — موجود إذْ ذاك . لكن ذاك ليس نافعاً في تحقق اليوم العرفي .

والى حمل اليوم على المتعارف وتقدير المضاف ، ذهب جمع من العلماء ، وادعوا أن أبتداء الخلق كان يوم الأحد، ولم يكن في السبت خلقٌ — أخذاً له من السبت بمعنى القطع لقطع الخلق فيه — . وتمام الخلق في يوم الجمعة وأجتماعه فيه ، سمي بذلك. فأول يوم وقع فيه الخلق يقال له « الأحد » ، وثاني يومٍ « الاثنين » ، وهكذا ؛ ويوم جُمِعَ فيه الخلقُ « الجمعةُ » .

وذهب آخرون الى حمل اليوم على اليوم اللغوي وعدم تقدير مضاف قبله ، وقالوا : كان مقدار كل يوم الف سنة (إن يوماً عندَ ربِّك كألفِ سنةٍ مما تَعُدُّون) .

وما ذكرناه سابقاً من تفسير الأيام بالأوقات ، أو تقدير مضاف وهو مقدار سته أيام ، هو ما ذهب اليه القاصرون من المفسرين عن الوصول الى ماورد في الشريعة الغراء . فقد ذكر الإمام تقي الدين أبو العباس أبن تيمية [1] في (منهاج السنة) وغيرِهِ من مؤلفاته أن الأيام كانت تعرف قبل أن يخلق السماوات وما فيها

---

(١) هو شيخ الاسلام ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم ، المعروف بابن تيمية : كان إماماً في المعقول والمنقول ، منافحاً عن السنة ، محارباً للبدعة ، جريئاً في الحق لا يخاف فيه ملاماً ، ولا يهاب سجناً وعذابا . ولد في حران سنة ٦٦١هـ وتوفي في دمشق سنة ٧٢٨ . وله مؤلفات كثيرة جداً ذكر بعضهم أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد منها : « الفتاوى » و « منهاج السنة » و « نقض المنطق »

بأنوار تشرق من جانب العرش يعرف بها كل يوم من أيام الأسبوع ، وبرهن على ذلك بما ينبغي مراجعته .

وفي خلقه سبحانه الأشياءَ مدرَّجاً ، تعليمٌ للخلقِ التثبتَ والتأنّيَ في الأمور .

وقوله : (ثم استوى على العرش) ، معناه : أنه أُستوى عليه أُستواءً يليق بذاته ، لا أن المراد به « أُستولىٰ » كما ذهب اليه المعاندون وأُعتقدوا أن ليس فوق العرش إلـهيعبد ، مع أن نصوص الكتاب والسنة ترغم أنوفهم ، وكلام السلف في هذا الباب مشهور .

و (العرش) في المشهور: الجسم المحيط بسائر الأجسام ، سمي به إمّا لأُرتفاعه، وإما للتشبيه بسرير الملك : فانه يقال له عرش، ومنه قوله : (ولها عرش عظيم) في عرش بلقيس [1] ، لأن الأمور والتدبيرات تنزل منه .

ومعنى قوله تعالى : (يغشي الليلَ النهارَ) أي يغطّي سبحانه النهار بالليل . ولما كان المغطَّى يجتمع مع المغطِّي وجوداً ، وذلك لايتصورهنا ، قالوا : المعنى يلبسه مكانه ، فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً .

ومعنى قوله : (يطلبه حثيثاً) أي سريعاً .

وقوله: (والشمسَ والقمرَ والنجوم مُسَخَّراتٍ بأمره) أي: خلقهن حال كونهن مذلّلات تابعات ، لتصرفه سبحانه فيهن بما شاء غير ممتنعات عليه جل شأنه ، كأنهن مميزات ، أمرن فأنقَدْنَ . وإفراد الشمس والقمر بالذكر ، مع دخولهما في النجوم ،

---

(١) ملكة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وقد امتد سلطانها على اليمن وخضعت له فارس وبابل وقصتها مع سليمان عليه السلام مبينة في كتاب الله تعالى .

لإظهار شرفهما عليها ، لِما فيهما من مزيد الإشراق والنور ، وبسيرهما في المنازل تعرف الأوقات . وقدم الشمس على القمر ، لأنها أسنى من القمر ، وأسمى مكانة ومكاناً ، بناء على ماقال الفلكيون وبرهنوا عليه أنها في السماء الرابعة وأنه في السماء الدنيا . غير أن ذلك ليس بمسلَّم عند المحدثين . كالقول بأن نوره مستفاد من نورها ، لاُختلاف تشكلاته على أنحاء متفاوتة بحسب وضعه من الشمس في القرب والبعد عنها ، مع ما يلحقه من الخسوف ، لا لاُختلاف التشكلات وحده . فانه لا يوجب الحكم بأن نورالقمر مستفاد من الشمس قطعاً ، لجواز أن يكون نصفه من ذاته ونصفه مظلماً ، ويدور على نفسه بحركة مساوية لحركة فلكه ، فاذا تحرك بعد المحاق يسيراً ، رأيناه هلالاً ، ويزداد فنراه بدراً ، ثم يميل نصفه المظلم شيئاً فشيئاً الى أن يؤول الى المحاق .

وباقي الآية معلوم .

فهذه الآية ، ليس فيها ما يخالف قواعد الفن بوجه من الوجوه .

سُورة التَّوْبَة

قال الله تعالى : (عليه توكَّلْتُ وهو رَبُّ العَرْشِ العظيم) — ١٢٩ — .

تفسيرها :

(العرش) كما سبق هو الجسم المحيط بسائر الأجسام ، ولا تصل الى حقيقة عظمه الأفهام والأوهام . وسمته الفلاسفة « فلك الأفلاك » و « محدِّد الجهات » ، وليس لهم على ذلك برهان ولا أثارة من علم .

ووصفَه بـ (العظيم) ، ويحق له ذلك ؛ لأنه لا يعلم مقدار عظمته الا الله تعالى. وفي الخَبَر : ان الأرض بالنسبة الى السماء الدنيا كحلقة في فلاة ، وهو بالنسبة الى العرش كذلك[1] . وعن أبن عباس : إنه لا يقدِر قدرَهُ أحد .

---

(١) قلت : المعروف المروي في كتب السنة من طرق انما هو بلفظ : « ما السماوات السبع في الكرسي الا كحلقة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفـــلاة على تلك الحلقة » .

أخرجه محمد بن أبي شيبة والبيهقي وغيرهما ، وقد خرجته وتكلمت على طرقه في « سلسلة الاحاديث الصحيحة » (١٠٩) .

وانتهيت فيه الى انه صحيح لغيره ، فراجعه .

سورة يونس

قال الله تعالى : (هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً ، والقمرَ نوراً ، وقدَّرَهُ مَنازِلَ ، لِتعلَمُوا عَددَ السنينَ والحسابَ . ما خَلَقَ اللهُ ذلك إلاّ بالحقِّ ، يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إنّ في اختلافِ اللّيلِ والنهارِ وما خَلَقَ اللهُ في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُون) — ٦ — .

تفسير هذه الآية :

(الشمس): مأخوذة من شمسة القلادة للخَرَزة الكبيرة وسطها. وسميت بذلك لأنها أعظم الكواكب كما تدل عليه الآثار ويشهد له الحسّ ، واليه ذهب جمهور أهل الهيئة . ومنهم من قال : سميت بذلك ، لأنها في الفلك الأوسط بين أفلاك العلوية وبين أفلاك الثلاثة الأُخَر على ترتيب مافي قوله :

زُحَلٌ شرى مرّيخه من شمسه فتزاهرتْ لعُطاردَ الأقمار

وهو أمر ظني ، لم تشهد له الأخبار النبوية كما ستعلمه .

وأستفادةُ القمرِ النورَ من الشمس — سواء أكانت على سبيل الانعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيراً كما في المرآة ، أم بأن يستنير جوهره على ما هو الأشبه عند الرازي — قد ذكرها كثير من الناس .

وهي مما لم يجيء من حديثِ مَنْ عرج الى السماء ، صلّى الله تعالى عليه وسلم، وإنما جاء عن الفلاسفة .

وقد زعموا أن الأفلاك الكلية تسعةٌ ، أعلاها فلك الأفلاك ، وهو الفلك الأطلس ، ثم فلك الثوابت ، ثم فلك زُحَلَ ، ثم فلك المشتري ، ثم فلك المريخ، ثم فلك الشمس ، ثم فلك الزُّهَرَةِ، ثم فلك عُطارِدَ وهو « الكاتب » بزعمهم، ثم فلك القمر .

وأُستدل كثير منهم على هذا الترتيب بما يبقى معه الاُشتباه بين الشمس وبين الزُّهَرة والكاتب ، كالكسف والانكساف وأُختلاف المنظر الذي توصلوا الى معرفته بذات الشعبتين ؛ لأن الأول لايتصور هناك ، لأن الزُّهَرَةَ والكاتب يحترقان عند الاُقتران في معظم المعمورة ، والثاني أيضاً مما لايستطاع علمه بتلك الآلة ، لأنها تنصب في سطح نصف النهار . وهذان الكوكبان ، لايظهران هناك، لكونهما حوالي الشمس بأقلّ من برجين . فاذا بلغا نصف النهار ، كانت الشمس فوق الأرض شرقية أو غربية ، فلا يُرَيان أصلا .

وجعلُ الشمس في الفلك الأوسط — لما في ذلك من حسن الترتيب كأنها شمسة القلادة ، أو لأنها بمنزلة الملِك في العالم ، فكما ينبغي للملك أن يكون في وسط العسكر ينبغي لها أن تكون في وسط كرات العالم — أمرٌ إقناعي ، بل هو من قبيل التمسك بحبال القمر .

ومثل ذلك تمسكهم في عدم الزيادة على هذه الأفلاك بأنه لافضل في الفلكيات، مع أنه يلزم عليه أن يكون ثِخَنُ الفلك الأعظم أقل ما يمكن أن يكون للأجسام من الثخانة ، اذ لا كوكب فيه حتى يكون ثخنه مساوياً لقطره . وقد بُيِّن في (رسالة

الأبعاد والأجرام) أنه بلغ الغاية في الثخن ، وحينئذٍ يمكن أن يكون لكل من الثوابت فلك على حدة ، وأن تكون تلك الأفلاك متوافقةً في حركاتها جهةً وقطباً ومِنْطَقَةً وسرعةً . بل لو قيل : بتخالفِ بعضِها ، لم يكن هناك دليل ينفيه ؛ لأن المرصود منها أقل قليل . فيمكن أن يكون بعض مالم يرصد متخالفاً .

على أن من الناس من أثبت كرةً فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم ، وأستدل على ذلك بما أستدل .

ومن علم أن أرباب الأرصاد منذ زمن يسير وجدوا عدة كواكب سيارة ، غير السبع ، منها « هرشل [1] » — وقد رصده بعض الفلاسفة المتأخرين ، وهو أبطأ سيراً من زُحَل فوجده يقطع البرج في ست سنين شمسية وأحد عشر شهراً وسبعة وعشرين يوماً — لايبقى له أعتماد على ما قاله المتقدمون ، ويجوّز أمثالَ ما ظفر به هؤلاء المتأخرون .

وأيضاً من الجائز أن تكون الأفلاك ثمانية ، لإمكان كون جميع الثوابت مركوزةً في محدَّب ممثَّل زُحَلَ ، أي في متممة الحاوي ، على أنه يتحرك بالحركة البطيئة ، والفلك الثامن يتحرّك بالحركة السريعة. وحينئذ تكون دائرة البروج المارّة بأوائل البروج منتقلة بحركة الثامن، غير منتقلة بحركة الممثّل. ليحصل أنتقال الثوابت بحركة الممثل من برج الى برج كما هو الواقع .

وقد صرّح البرجندي أن القدماء لم يثبتوا الفلك الأعظم ، وإنما أثبته المتأخرون .

وأيضاً يجوز أن تكون سبعة ، بأن تفرض الثوابت ودائرة البروج على محدَّب

---

(١) يريد (أورانوس) الذي كشفه (هرشل) كما تقدم قبل قليل في كلامه . (الأثري)

ممثل زُحَل، ويكون هناك نفسان تتصل إحداهما بمجموع السبعة، وتحركها إحدى الحركتين الأوليين؛ والأخرى بالكرة السابعة، وتحركها الأخرى. ولكن بشرط أن تفرض دوائر البروج متحركة بالسريعة دون البطيئة كتحركها متوهمة على سطوح الممثلات بالسريعة دون البطيئة، لتنقل الثوابت بالبطيئة من برج الى برج كما هو الواقع.

وأيضاً ذكر الرازي أنه لِمَ لا يجوز أن تكون الثوابت تحت فلك القمر، فتكون تحت كرات السيارة لا فوقها؟

وما يقال من أنا نرى أن هذه السيارة تكسف الثوابت، والكاسف تحت المكسوف لامحالة، مدفوع بأن هذه السيارات إنما تكسف الثوابت القريبة من المنطقة دون القريبة من القطبين. فلِمَ لا يجوز أن يقال: هذه الثوابت القريبة من المنطقة مركوزة في الفلك الثامن، والقريبة من القطبين مركوزة في كرة أخرى تحت كرة القمر.

على أنه لم لا يجوز أن يقال [1]: الكواكب تتحرك بأنفسها من غير أن تكون مركوزة في جسم آخر، ودون إثبات الامتناع خرط القتاد؟

وذكروا في استفادة نور القمر من ضوء الشمس أنه من الحدسيات، لاختلاف أشكاله بحسب قربه وبعده منها. وذلك — كما قال ابن الهيثم [2] — لايفيد

(١) هذا الاحتمال هو الذي ذهب اليه المتأخرون من الفلاسفة الافرنج، وبرهنوا عليه، وعدوا القول بما سواه محض هذيان، كما أنه مذهب المحدثين من المتشرعين، فالكواكب كلها سابحة في الجو بنفسها، متحركه بالجاذبية على تفصيل مذكور في محله. (المؤلف)

(٢) هو أبو علي، محمد بن الحسن بن الهيثم، من العلماء المشهورين بالهندسة. ولد سنة ٣٥٤ هـ وتوفي نحو ٤٣٠، وله مؤلفات كثيره ترجم بعضها إلى اللاتينية وغيرها.

الجزم بالاُستفادة ، لاُحتمال أن يكون القمر كرةً نصفُها مضيء ونصفُها مظلم ، ويتحرك على نفسه فيرى هلالاً ثم بدراً ثم ينمحق ، وهكذا دائماً .

ومقصود أنه لا بد من ضم شيء آخر الى اُختلاف الأشكال بحسب القرب والبعد ، ليدل على المدعىٰ ، وهو حصول الخسوف عند توسط الأرض بينه وبين الشمس .

وأنت تعلم أنه لا جزم أيضاً ، وإن ضُمّ ما ضُمّ ، لجواز أن يكون سبب آخر لاُختلاف تلك الأشكال النورية . لكنا لا نعلمه ، كأن يكون كوكب كَمِد تحت فلك القمر ، ينخسف به في بعض اُستقبالاته ، وإنْ طُعن في ذلك بأنه لو كان لَرُئِيَ . قلنا : لِمَ لا يجوز أن يكون ذلك الاُختلاف والخسوف ، من آثار ارادة الفاعل المختار من دون توسط القرب والبعد من الشمس وحيلولة الأرض بينها وبينه ؟ بل ليس هناك الاّ توسط الكاف والنون ، وهو كافٍ عند من سلمت عينه من الغَيْن .

وللمتشرعين من المحدثين ، وكذا للصوفية ، كلمات شهيرة في هذا الشأن .

ولعلك قد وقفتَ عليها ، وإلاّ فستقف بعدُ إن شاء الله تعالى .

وقد اُستندوا فيما يقولونه الى أخبار نبوية ، وأرصاد قلبية . وغالب الأخبار في ذلك ، لم تبلغ درجة الصحيح ، وما بلغ منها آحاد .

والحق أنه لا جزم بما يقولونه في ترتيب الأجرام العلوية وما يلتحق بذلك ، وأن القول به مما لا يضرّ بالدين ، الا اذا صادم ما علم مجيئه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقوله تعالى : (وقَدَّرَهُ مَنازِلَ) أي : قدر للقمر منازل ، أو قدر مسيره في منازل . وتخصيص القمر بهذا التقدير ، لسرعة سيره بالنسبة الى الشمس ، ولأن منازله معلومة محسوسة ، ولكونه عمدة في تواريخ العرب ، ولأن أحكام الشرع منوطة به في الأكثر .

والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً . وهي — على ما ذكره ابن قتيبة في كتاب الأنواء ، وغيرهُ ممن ألف في الأنواء — : الشَّرَطان ، والبُطَيْن ، والثُّرَيّا ، والدَّبَران، والهَقْعَةُ ، والهنعة، والذِراع ، والنَثْرَةُ ، والطَّرْف، والجبهة ، والزَّبْرَة، والصَّرْفَة ، والعَوّاء والسِماك الرامح ، والسِماك الأَعْزَل ، والغفرْ ، والزُّبانى ، والإكليل ، والقلب ، والشَّوْلة ، والنعائم ، والبلدة ، وسَعْدُ الذابح وسُعْدُ بُلَعَ ، وسعد الأخبية ، وفَرْغ الدلو المقدَّم والفَرْغُ المؤخر ، وبطن الحوت .

وهي مقسمة على البروج الأثني عشر المشهورة ، فيكون لكل برج منزلان وثلث . والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلاث مئة وستين جزءاً هي أجزاء دائرة البروج — على اثني عشر . والدرجة عندهم منقسمة بستين دقيقة . وهي منقسمة بستين ثانية، وهي منقسمة بستين ثالثة وهكذا الى الروابع والخوامس والسوادس وغيرها .

ويقطع القمر — بحركته الخاصة في كل يوم بليلته — ثلاث عشرة درجة وثلاث دقائق وثلاثاً وخمسين ثانية وستاً وخمسين ثالثة .

وتسمية ما ذُكِر « منازلَ » مجازٌ ؛ لأنه عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت ، قريبة من المِنطقة . والمنزلة الحقيقية للقمر ، الفراغُ الذي يشغله جِرْمُ القمر .

فمعنى نزول القمر في هاتيك المنازل مُسامَتَتُهُ إيّاها . وكذا تعتبر المسامتة في نزوله في البروج ، لأنها مفروضة أولاً في الفلك الأعظم .

وأما تسمية نحو الحَمَل والثور والجَوْزَة بذلك ، فباعتبار المسامتة أيضاً .

وكان أولَ المنازل الشَرَطان ، ويقال له النَّطُح ، وهو لأول الحمل ؛ ثم تحركت حتى صار أوّلها — على ما حرره المحققون من المتأخرين — الفرع المؤخر ،ولا يثبت على ذلك ؛ لأن للثوابت حركةً على التوالي — على الصحيح ، وإن كانت بطيئة ، وهي حركة فلكها .

ومثبتو ذلك ، اختلفوا في مقدار المدة التي يقطع بها جزءاً واحداً من درجات منطقته . فقال بعضهم : هي ست وستون سنة شمسية ، أو ثمان وستون سنة قمرية . وذهب ابن الأعلم [1] الى أنها سبعون سنة شمسية . وطابقه الرصد الجديد الذي تولاه نصير الطوسي [2] بمراغة . وزعم محي الدين أحد أصحابه أنه تولى رصد عدة من الثوابت ، كعين الثور وقلب العقرب ، بذلك الرصد ، فوجدها تتحرك في كل ست وستين سنة شمسية درجةً واحدةً . وادعى بطليموس أنه وجد الثوابت القريبة الى المِنْطَقَة متحركة في كل مئة سنة شمسية درجة .

والله تعالى أعلم بحقائق الأحوال ، وهو المتصرف في ملكه وملكوته كما يشاء .

---

(١) هو أبو القاسم علي بن القاسم العلوي ابن الأعلم ، أحد علماء الهيئة ، ولد في بغداد وتوفي فيها سنة ٣٧٥ هـ .

(٢) هو ابو جعفر نصير الدين ، محمد بن محمد بن الحسن الطوسي ، فيلسوف عالم بالأرصاد والرياضيات والعلوم العقلية . ولد في طوس سنة ٥٩٧ هـ وتوفي سنة ٦٧٢ ومن مصنفاته الكثيرة : « تربيع الدائرة » و « تحرير أصول اقليدس » و « تحرير المجسطى » في الهيئة .

قوله تعالى : (لِتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ) . هذه الآية ، تكلّم فيها كثير من المفسرين . وأحسن من تكلم عليها الإمام تقي الدين أحمد بن تيميه ، ألّف في ذلك رسالةً سماها (بيان الهدى من الضلال)

وبعد أن ذكر لها مقدمة ، قال :

« إني رأيت الناس في شهر صومهم ، وفي غيره أيضاً ، منهم من يصغي الى ما يقوله بعض جهّال أهل الحساب من أن الهلال (يُرَى أو لا يُرَى) ، ويبني على ذلك إما في باطنه وإما في باطنه وظاهره، حتى بلغني أن من القضاة من كان يرد شهادة العدد من العدول لقول الحاسب الجاهل الكاذب إنه يُرَى أو لا يرى ، فيكون ممن كذّب بالحق لما جاءه . وربما أجاز شهادة غير المرضيّ لقوله ، فيكون هذا الحاكم من السّماعين للكذب ؛ فإن الآية تتناول حكام السوء كما يدل عليه السياق ، حيث تقول : (سَمّاعون للكذب أكّالون للسُّحْتِ) من الرُّشا وغيرها، وما أكثر ما يقترن هذان !

ومنهم من لا يقبل قوله في المنجم ، لا في الباطن ولا في الظاهر . لكن في قلبه حُسْيكة من ذلك ، وشبهة قوية ، لثقته به من جهةِ أن الشريعة لم تلتفت الى ذلك ، لاسيما إن كان قد عرف شيئاً من حساب النيرين واجتماع القرصين ومفارقة احدهما الآخر بعدة درجات وسبب الإهلال والإبدار والاستتار والكسوف والخسوف ، فأجرى حكم الحاسب الكاذب الجاهل بالرؤية هذا المجرى .

ثم هؤلاء يجيزون من الحساب وصورة الأفلاك وحركاتها أمراً صحيحاً ، قد يعارضهم بعض الجهال من الأميين المنتسبين الى الإيمان أو الى العلم أيضاً ، فيراهم قد خالفوا الدين في العمل بالحساب في الرؤية ، أو في اتباع أحكام النجوم في تأثيراتها

المحمودة والمذمومة ، فيراهم لمّا تعاطوا هذا — وهو من المحرمات في الدين — صار كل ما يقولونه من هذا الضرب حقاً ، ولا يميز بين الحق الذي دلّ عليه السمع والعقل ، والباطلِ المخالف للسمع والعقل . مع أن هذا أحسن حالاً في الدين من القسم الأول ؛ لأن هذا كذّب بشيء من الحق متأوّلاً جاهلاً من غير تبديل لبعض أصول الإسلام ، والضرب الأول قد يدخلون في تبديل الإسلام . فإنّا نعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن العمل (في رؤية هلال الصوم أو الحج أو العِدّة أو الإيلاء أو غير ذلك من الأحكام المعلقة بالهلال) بخبر الحاسب أنه يُرَى ، أو لا يُرَى ، لا يجوز . والنصوص المستفيضة عن النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، بذلك كثيرة ، وقد أجمع المسلمون عليه ، ولا يعرف فيه خلاف قديم أصلاً ولا خلاف حديث .

إلاّ أن بعض المتأخرين من المتفقهة الحادثين بعد المئة الثالثة زعم أنه اذا غُمّ الهلال ، جاز للحاسب أن يعمل في حق نفسه بالحساب . فإن كان الحساب دلّ على الرؤية صام ، والاّ فلا .

وهذا القول وإن كان مقيداً بالإغمام ومختصاً بالحاسب ، فهو شاذّ مسبوق بالإجماع على خلافه .

فأما اتباع ذلك في الصحو ، أو تعليق عموم الحكم العام به ، فما قاله مسلم .

وقد يقارب هذا القول من يقول من الإسماعيلية بالعدد دون الهلال ، وبعضهم يروي عن جعفر الصادق[1] جدولاً يعمل عليه ، وهو الذي افتراه عليه عبد الله بن معاويه[2] .

---

(١) هو أبو عبد الله ، جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين الملقب بالصادق ، تابعي جليل ، وعالم كبير ، ولد في المدينة وتوفي فيها سنة ١٤٨هـ

(٢) هو عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب . قتل في هراة سنة —

وهذه الأقوال خارجة عن دين الإسلام ، وقد برّأ الله منها جعفراً وغيره . ولا ريب أن أحداً ما يمكنه مع ظهور دين الإسلام أن يُظهر الاستناد الى ذلك ، إلاّ أنه قد يكون له عمدة في الباطن في قبول الشهادة وردّها ، وقد يكون عنده شبهة في كون الشريعة تعلم الحكم به .

وأنا — إن شاء الله — أبيّن ذلك ، وأوضح ما جاءت به الشريعة دليلاً وتعليلاً ، شرعاً وعقلا :

قال الله تعالى : (يسألونكَ عن الأهِلَّةِ . قل : هي مواقيتُ للنَّاسِ والحجِ .) فأخبر أنها مواقيت للناس ، وهذا عام في جميع أمورهم ، وخص الحج بالذكر تمييزاً له ، ولأن الحج تشهده الملائكة وغيرهم ، ولأنه يكون في آخر شهور الحول ، فيكون علماً على الحول ، كما أن الهلال علم على الشهر . ولهذا يسمون الحلول حجة ، فيقولون : له سبعون حِجة ، وأقمنا خمس حِجج . فجعل الله الأهلة مواقيتَ للناس في الأحكام الثابتة بالشرع ابتداء أو سبباً من العباد ، وللأحكام التي تثبت بشروط العبد . فما ثبت من الموقتات بشرع أو شرط ، فالهلال ميقات له . وهذا يدخل فيه الصيام والحج ومدة الإيلاء والعدةُ وصوم الكفارة . وهذه الخمسة في القرآن . قال الله تعالى : (شَهْرُ رمَضانَ الذي أُنزِل فيه القرآنُ) ، وقال تعالى : (الحجُّ أَشْهُرٌ معلوماتٌ) ، وقال تعالى : (للذين يُؤْلُونَ من نِسائِهم تَرَبُّصُ أربعةِ أشهُرٍ) ، وقال تعالى : (فصيام شهرين متتابعين) وكذلك قوله : (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) . وكذلك صوم النذر وغيره . وكذلك الشروط من الأعمال المتعلقة بالثمن ،

---

١٣١ هـ وكان قد خرج على الأمويين وطلب لنفسه الخلافة . وهو ممن كان يتهم بالزندقة .

ودين السَّلَم ، والزكاة ، والجزية ، والعقْل ، والخيار ، والأيمان ، وأَجل الصِّداق ، ونجوم الكتابة ، والصلح عن القصاص ، وسائر ما يؤجل من دَيْن وعَقْد وغيرها .

وقال تعالى : (والقمرَ قدّرناه منازلَ حتّىٰ عاد كالعُرْجُونِ القديمِ) ، وقال : (هو الذي جعَلَ الشمسَ ضياءً والقمر نوراً ،وقدَّرَهُ منازلَ ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحسابَ . ما خَلَقَ اللهُ ذٰلكَ الا بالحقِ) . فقوله : (لتعلموا) متعلق — والله أعلم — بقوله : (وقدّره) ، لا بـ(جَعَلَ) ؛ لأنّ كون هذا ضياءً وهذا نوراً ، لا تأثير له في معرفة عدد السنين والحساب ، وإنّما يؤثر في ذٰلك انتقالهما من برج الى برج؛ ولأن الشمس لم يعلّق لنا بها حساب شهر ولا سنة ، وأنّما عُلّق ذلك بالهلال كما دلّت على تلك الآية ؛ ولأنه قد قال تعالى : (إنَّ عِدّةَ الشهور عندَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شهراً في كتابِ اللهِ ، يومَ خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ ، منها أربعةٌ حُرُمٌ) فأخبر أن الشهور معدودة اثنىٰ عشر ، والشهر هلالي بالاضطرار . فعلم أنّ كل واحد منها معروف بالهلال .

وقد بلغني أن الشرائع قبلنا أيضاً إنما علّقت الأحكام بالأهلة ، وإنما بُدِّلَ من أتباعهم كما يفعله اليهود في اجتماع القرصين وفي جعل بعض أعيادها بحساب السنة الشمسية ، وكما تفعله النصارى في صومها حيث تراعي الاجتماع القريب من أول السنة الشمسية وتجعل سائر أعيادها دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التي كانت للمسيح ، وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في اصطلاحات لهم . فان منهم من يعتبر بالسنة الشمسية فقط ، ولهم اصطلاحات في عدد شهورها؛ لأنها وإن كانت طبيعية فشهودها عددي وضعي . ومنهم من يعتبر القمرية ، لكن يعتبر اجتماع القرصين .

وما جاءت به الشريعة هو أكمل الأمور وأحسنها وأبينها وأصحها وأبعدها من الاضطراب . وذلك أن الهلال أمر مشهود مرئيّ بالأبصار ، ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار ، ولهذا سموه هلالاً ؛ لأن هذه المادة تدلّ على الظهور والبيان إما سمعاً وإما بصراً كما يقال : أهلّ بالعمرة ، وأهل بالذبيحة لغيره ، اذا رفع صوته . ويقال: تهلل وجهه ،اذا استنار وأضاء ، وقيل : إن أصله رفع الصوت ، ثم لما كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته سموه هلالا ، ومنه قوله :

يُهِلّ بالفرقد رُكْبانُها كما يُهلّ الراكبُ المعتمرْ

وتهللُ الوجه مأخوذ من استنارة الهلال .

فالمقصود أن المواقيت حُدِّدت بأمر ظاهر بينّ ، يشترك فيه الناس ، ولا يشرك الهلالَ في ذلك شيءٌ . فإن اجتماع الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الإهلال ، أمر خفي لا يعرف الا بحساب ينفرد به بعض الناس مع تعب وتضييع زمان كثيرٍ واشتغال عما يَعني الناس ومالا بُدّ منه ، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف .

وكذلك كون الشمس حاذت البرج الفلاني أو الفلاني، هذا أمر لا يدرك بالأبصار، وإنما يدرك بالحساب الخفي الخاص المُشكل الذي قد يغلط ، وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريباً .فإنه اذا انصرم الشتاء ، ودخل الفصل الذي تسميه العرب الصيف ويسميه الناس الربيع ، كان وقت حصول الشمس في نقطة الاعتدال الذي هو أول الحَمَل . وكذلك مثله في الخريف . فالذي يدرك بالإحساس ، الشتاء والصيف وما بينهما من الاعتدالين تقريباً . فأما حصولها في برج بعد برج ، فلا يحسب الا بحساب فيه كلفة وشغل غيره مع قلة جدواه .

فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة ، الا الهلال .

وقد انقسمت عادات الأمم في شهرهم وسنتهم القسمةَ العقلية ، وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة : إما أن يكونا عدديين ، أوطبيعيين ، أو الشهر طبيعياً والسنة عددية ، أو بالعكس .

فالذين يَعدونهما عدديين مثل من يجعل الشهر ثلاثين يوماً ، والسنة اثنيْ عشر شهراً. والذين يجعلونهما طبيعيين مثل من يجعل الشهرَ قمرياً والسنةَ شمسيةً . ويلحق في آخر الشهورِ الأيامَ المتفاوتة بين السنتين .

فان السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وبعض يوم ، خمس وسدس ، وإنما يقال فيها ثلاثمائة وستون يوماً جبراً للكسر في العادة : عادةِ العرب في تكميل ما ينقص من التاريخ في اليوم والشهر والحول .

وأما الشمسية فثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وبعض يوم ، ربع يوم .

ولهذا كان التفاوت بينهما أحد عشر يوماً ، إلاّ قليلا ، تكون سنة في كل ثلاث وثلاثين سنة وثُلُث سنة . ولهذا قال تعالى : (ولَبِثوُا في كَهْفِهِمْ ثلاثَ مئةٍ سِنِينَ ،وازدادُوا تسعاً) . قيل : معناه ثلاثمائة سنة شمسية ، وازدادوا تسعاً بحساب السنة القمرية .

ومراعاة هذين ، عادة كثير من الامم من أهل الكتابين ، بسبب تحريفهم. وأظنه كان عادة المجوس أيضاً .

وأما من يجعل السنة طبيعية ، والشهرَ عددياً ، فهذا حساب الروم والسريانيين والقبط ونحوهم من الصابئين والمشركين ممن يعدّ شهر كانون ونحوه عددياً ، ويعتبر السنة بسير الشمس

فأما القسم الرابع ، فبأن يكون الشهر طبيعياً والسنة عددية ، فهو سنة المسلمين ومن وافقهم .

ثم الذين يجعلون السنة طبيعية ، لايعتمدون على أمر ظاهر كما تقدم . بل ، لا بُدَّ من الحساب والعدد . وكذلك الذين يجعلون الشهر طبيعياً ، و يعتمدون على الاجتماع ، لا بُدَّ فيه عندهم من العدد والحساب . ثم ما يحسبونه ، أمر خفي ينفرد به القليل من الناس مع كلفة ومشقه وتعرّض للخطأ .

فالذي جاءت به شريعتنا ، أكمل كل الأمور ؛ لأنه وقّت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار ، فلا يضلّ أحد عن دينه ، ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه ، ولايدخل بسببه فيما لا يَعنيه ، ولا يكون لأحد طريق الى التلبيس في دين الله كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم .

وأما الحول ، فلم يكن له حدّ ظاهر في السماء ، فكان لا بُدَّ فيه من الحساب والعدد . فكان عدد الشهور الهلالية أظهر وأعمّ من أن يحسب سير الشمس ، وتكون السنة مطابقة للشهر ، ولأن السنين اذا أجتمعت فلا بُدَّ من عددها في عادة جميع الأمم ، إذْ ليس للسنين اذا تعددت حدٌّ سماوي يعرف به عددها ، فكان عدد الشهور موافقاً لعدد الشهور . ثم جُعلت السنة أثني عشر شهراً بعدد البروج التي تكمل بِدَوْر الشمس فيها شمسيةً . فاذا دار القمر فيها ، كمل دورته السنوية .

وبهذا كله تبينّ معنى قوله: (وقدَّرَهُ مَنازِلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحساب). فإن عددشهور السنة ،وعدد السنة بعد السنة ، إنما أصله تقدير القمر منازل .وكذلك

معرفة الحساب ، فإن حساب بعض الشهر — لِمَا يقع فيه من الآجال ونحوها — إنما يكون بالهلال . وكذلك قوله تعالى : (قُلْ هي مواقيتُ للناسِ والحَجِّ) .

فظهر بما ذكرناه أنه بالهلال يكون توقيت الشهر والسنة ، وأنه ليس شيء يقوم مقام الهلال ألبتّةَ ، لظهوره وظهور العدد المبني عليه ، وتيسر ذلك وعمومه، وغير ذلك من المصالح الخالية من المفاسد .

ومن عَرَفَ ما دخل على أهل الكتابَينْ والصابِئين والمجوس وغيرهم في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من أمورهم من الاضطراب والحرج وغير ذلك من المفاسد ، ازداد شكره على نعمة الإسلام ، مع اتفاقهم أن الأنبيا لم يشرعوا شيئاً من ذلك . وإنما دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصائبة الذين دخلوا في ملّتهم ، وشرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله .

فلهذا ذكرنا ما ذكرنا ، حفظاً لهذا الدين عن إدخال المفسدين ، فان هذا مما يخاف من تغييره .

فإنه قد كانت العرب في جاهليتها قدغيرّت ملّة ابراهيم بالنسيء الذي ابتدعته، فزادت به في السنة شهراً ، جعلتها كَبِيساً لأغراض لهم ، وغيروا به ميقات الحج والأشهر الحرم ، حتى كانوا يحجون تارةً في المُحَرَّم وتارةً في صفر ، حتى يعود الحج الى ذي الحجة ، حتى بعث الله المقيم لملّة إبراهيمَ ، فوافى حجه ، صلى الله عليه وسلم، حجةَ الوداع وقد استدار الزمان كما كان ووقعت حجته في ذي الحجة ، فقال في خطبته المشهورة في الصحيحين وغيرهما : « إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماوات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم : ثلاث متواليات — ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بين جُمادى وشعبان » . وكان

قبل ذلك الحجُ لا يقع في ذي الحجة ، حتى حجةُ أبي بكر [1] سنةَ تسع كانت في ذي القعدة . وهذا من أسباب تأخير النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحجَّ . وأنزل الله تعالى : (إنّ عِدّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يومَ خلق السموات والأرضَ ، منها أربعةٌ حُرُم ، ذلك الدينُ القَيِّمُ) ، فأخبر الله أن هذا هو الدين القيم ، ليبين أن ماسواه من أمر النسيء وغيره من عادات الأمم ليس قيّماً لما يدخله من الانحراف والاضطراب .

ونظير الشهر والسنة ، اليوم والأسبوع . فإن اليوم طبيعي من طلوع الشمس الى غروبها . وأما الأسبوع فهو عَدَدي من أجل الأيام الستة التى خلق الله فيها السماوات والأرض ثم استوى على العرش ، فوقع التعديل بين الشمس والقمر باليوم والأسبوع بسبب الشمس ، والشهر والسنة بسبب القمر .

وبهذا قد توجه قوله : (لتعلموا ــ الى جعل) ، فيكون جعل الشمس والقمر لهذا كله .

فأما قوله تعالى : (وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً) ، فقد قيل : هو من الحساب ، وقيل: بحُسبان كحسبان الرمي ، وهو دوران الفلك فان هذا مما لا خلاف فيه . فقد دل الكتاب والسنة وأجمع علماء الأمة على مثل ما عليه أهل المعرفة من أهل الحساب : من أن الأفلاك مستديرة ، لا مسطحة » .

انتهى المقصود من نقله . ثم ذكر فصلاً ختم به رسالته ، من أراده فليراجعه ، فإن فيه فوائد كثيرة .

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو بكر ، عبد الله بن أبي قحافة ، التيمي القرشي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من آمن به من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين بعده . ولد سنة ٥١ ق‌ه وتوفي في المدينة سنة ١٣ ه . ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف شهر .

وقوله تعالى : (ما خلق الله ذٰلك إلاّ بالحقّ) أي متلبساً بالحق ، مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة .

وقوله : (نفصل الآيات لقوم يعلمون) إنما خصهم ، لأنهم المنتفعون بها .

ثم قال تعالى : (إنّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السمٰوات والأرض لآيات لقوم يتقّون) . في هذه الآية تنبيه إجمالي على قدرة الله تعالى ، أي في تعاقب الليل والنهار ، وكون كل منهما خِلْفَةً للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين عند أكثر الفلاسفة لحركة الفلك الأعظم حول مركزه ، على خلاف التوالي ، فانه يلزمها حركة سائر الأفلاك وما فيها من الكواكب مع سكون الأرض على ما زعموا . وهذا في أكثر المواضع .

وأما في عرض تسعين ، فلا يطلع شيء ولا يغرب بتلك الحركة أصلاً ، بل بحركات أخرى . وكذا فيما يقرب منه ، قد يقع طلوع وغروب بغير ذلك ، وتسمى تلك الحركةُ « الحركة اليومية » ، وجعلها بعضهم — وهم فلاسفة الافرنج — بتمامها للأرض ، وجعل آخرون بعضَها للأرض ، وبعضها للفلك الأعظم .

والقرآن العظيم ، ساكت عن المذهبين ، وذٰلك من براهين إعجازه .

والمشهور عند كثير من المحدثين أن الشمس نفسها تجري مسخّرةً بإذن الله تعالى في بحر مكفوف ، فتطلع وتغرب حيث شاء الله ، ولا حركة للسماء .

والى مثل ذٰلك ذهب الشيخ محي الدين بن عربي إمام صوفية عصره .

والله المطلع على حقائق الأمور ، لا الـه الا هو وحده لاشريك له .

سُورة هُـــوْد

قال الله تعالى : (وهو الّذي خَلَقَ السَّموات والأرضَ في ستّة أيّامٍ ، وكان عرشُهُ على الماء ، لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحسنُ عَمَلاً ...) — ٧ — .

تفسير الآية :

كان المراد بخلق السماوات والأرض خلقهما وما فيهما ، أو تجعل « السماوات » مجازاً عن العلويات فتشملها وما فيها ، وتجعل « الأرض » مجازاً بمعنى السفليات فتشملها وما فيها من غير تقدير . واُحتيج الى ذٰلك لاَقتضاء المقام إيّاه . وإلاّ ، فخلقهما في تلك المدة ، لاينافي خلق غيرهما فيها .

والمراد باليومِ ، الوقتُ مطلقاً ، لا المتعارف . إذ لا يتصور ذلك حين لاشمس ولا قمر. ومنهم من قال: أُريد به مدة زمان دور المحدّد المسمى بالعرش — بزعمهم — دورةً تامة . واليه ذهب الشيخ محي الدين ، وقد علمت حاله فيما سبق ، وأن الشيخ الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية ذكر أن للايام علاماتٍ تصدر من جانب العرش بها تعرف . وقد ذكر ذٰلك في كثير من كتبه ، منها « منهاج السنة » .

وفي عدم خلقهما دفعةً — كما علمتَ — دليلٌ على كونه — سبحانَهُ — قادراً مختاراً ، مع ما فيه من الاَعتبار للنظّار ، والحث على التأنّي في الأمور .

وإيثار صيغة الجمع في السماوات لاَختلافها بالأصل والذات دون الأرض ،

وإن قيل إنها مثل السماء في كونها سبعاً طباقاً ، بين كل أرض وأرض مسافة ، وفيها مخلوقات ، وبذلك فُسِرّ قوله سبحانه : (ومن الأرضِ مِثْلَهُنَ) .

والكثير على أن الأرض كرة واحدة ، منقسمة الى سبعة أقاليم ، وحملوا الآية على ذلك .

ومعنى قوله : (وكان عرشه على الماء) أن عرشه كان على الماء قبل خلقهما . وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد [1] ، وبه صرّح القاضي البيضاوي ، ثم قال : « لم يكن حائل بينهما ، أي بين العرش والماء ،لا أنه كان موضوعاً على الماء ، واُستدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم » انتهى .

ووافقه أبو السعود [2] على ذلك ، لكنه قال : « ليس تحت العرش غير الماء ، سواء كان بينهما فرجة أو موضوعاً على متنه كما ورد في الأثر . فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء . كيف لا ، ولو دلّ لدلّ على وجوده ، لا على إمكانه فقط ، ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش ، وانما يدلّ على أن خلقهما أقدم من خلق السماوات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما » انتهى .

والأكثرون على أن الحق مع أبي السعود .

وفي المقام تفصيل ينبغي أن يراجع تفسير الآية في مفصل التفاسير .

---

(١) هو أبو الحجاج ،مجاهد بن جبر ، تابعي، من شيوخ القراء والمفسرين ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١٠٤

(٢) هو محمد بن مصطفى العمادي من الاتراك المستعربين ، عالم مفسر .ولد سنة ٨٩٨ هـ وتوفي سنة ٩٨٢ ومن آثاره تفسيره « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » المعروف باسمه .

سُورة الرَّعْد

قال الله تعالى : « الله الذي رفع السَّموات بغير عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثمّ أستوىٰ على العرش ،وسخَّرَ الشمْسَ والقمرَ ، كلٌّ يَجْرِي لأجلٍ مُسَمًّى، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآياتِ ، لَعَلَّكُمْ بِلقاءِ ربِّكُمْ تُوقِنُونَ » — ٢ —

تفسير الآية :

(رفع السماوات) أي خلق الله السماوات مرتفعات على طريقةِ «سُبْحانَ مَنْ كبرّ الفيل وصغر البعوض » لا أنه — سبحانه — رفعها بعد أن لم تكن كذٰلك .

و (العَمَد) : الدعائم ، والمفرد عِماد كإهاب وأَهَبٍ . يقال عَمِدْتُ الحائط أعمَدُهُ عَمْداً اذا دعمته فاعتمد واستند . والجمعُ لجمعِ السماوات ، لا لأنّ المنفي عن كل واحدة منها العمد لا العماد .

و (تَرَوْنَها) : استئناف جيء به للاستشهاد على كون السماوات مرفوعةً كذٰلك ، كأنه قيل : ما الدليل على ذلك ؟ فقيل : رؤيتكم لها بغير عمد . فهو كقولك : أنا بلا سيف ولا رمح تراني .

وهٰذا دليل على وجود الصانع الحكيم — تعالى شأنه — ، وذلك لأن ارتفاع السماوات على سائر الأجسام المساوية لها في الجرْمية كما تقرر في محله ،

واختصاصها بما يقتضي ذلك ، لا بدَ أن يكون لمخصص ليس بجسم ولاجسماني ، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته ، وهو الله سبحانه الذي هو على كل شيء قدير .

ثم لايخفى أن الضمير في (ترونها) اذا كان راجعاً الى السماوات المرفوعة ، اقتضى ظاهر الآية أن المرئيّ هو السماء .

وقد صرح بعض الفلاسفة بأن المرئي هو كرة البخار ، وثخنُها أحد وخمسون ميلاً وتسع وخمسون دقيقة، والمجموع سبعة عشر فرسخاً وثلث فرسخ تقريباً . وذكروا أن سبب رؤيتها زرقاء أنها مستضيئة دائماً بأشعة الكواكب وما وراءها لعدم قبول الضوء كالمظلم بالنسبة اليها . فاذا نفذ نور البصر من الأجزاء المستنيرة بالأشعة الى الأجزاء التي هي كالمظلم ، رأى الناظر ما فوقه من المظلم بما يمازجه من الضياء الأرضي والضياء الكوكبي لوناً متوسطاً بين الظلام والضياء ، وهو اللون اللازَوردي . وذلك كما اذا نظرنا من جسم أحمرَ مشفٍّ الى جسم أخضر ، فإنّه يظهر لنا لون مركب من الحمرة والخضرة .

وأجمعوا أن السماوات التي هي الأفلاك ، لاترى ؛ لأنها شفافة ، لالون لها ، لأنها لا تحجب الأبصار عن رؤية ما وراءها من الكواكب ، وكُلّ مُلَوَّن فانه يحجب عن ذلك .

وتعقب ذلك الرازي بقوله : « إنا لانسلّم أن كل ملوّن حاجب ، فان الماء والزجاج ملونان لأنهما مرئيّان ، ومع ذلك لا يحجبان .

فان قيل : فيهما حجب عن الإبصار الكامل ، قلنا : وكيف عرفتم أنكم أدركتم هذه الكواكب إدراكاً تاماً ؟ » انتهى .

على أن ما ذكروه لا يتمشى في المحدِّد ، إذْ ليس وراءه شيء حتى يُرَى ، ولا في الفلك الذي يسمونه بفلك الثوابت أيضاً ، إذ ليس فوقه كوكبٌ مرئيٌّ .

وليس لهم أن يقولوا : لو كان كل منهما ملوناً ، لوجبَتْ رؤيته ؛ لأنا نقول : جاز أن يكون لونه ضعيفاً كلون الزجاج ، فلا يُرَى من بعيد .

ولئن سلمنا وجوب رؤية لونه ، قلنا لِمَ لا يجوز أن تكون هذه الزرقة الصافية المرئية لونه ؟ وما ذُكر أولاً فيها — دون إثباته خرط القَتاد .

وما يقال : إنها أمر يحس في الشفاف اذا بَعُدَ كما في ماء البحر ، فانه يرى أزرق متفاوت الزرقة بتفاوت قعره قرباً وبُعداً ، فالزرقة المذكورة لون يتخيل في الجو الذي بين السماء والأرض ؛ لأنه شفاف ، بُعْدُ عمقه لايجدي نفعاً ، لأن الزرقة كما تكون لوناً متخيَّلاً قد تكون أيضاً لوناً حقيقياً قائماً بالأجساد ، وما الدليل على أنها لا تحدث الا بذلك الطريق التخيُّلي ؟ فجاز أن تكون تلك الزرقة المرئية لوناً حقيقياً لأحد الفلكَيْنِ .

وأنت تعلم أنه لا مانع عند المسلمين من كون المرئي هو السماء الدنيا المسماة بفلك القمر عند الفلاسفة . بل ، هو الذي تقتضيه الظواهر .

ولا نسلم أن ما يذكرونه من طبقات الهواء مانعاً . وهذه الزرقة يحتمل أن تكون لوناً حقيقياً لتلك السماء ، صبغها الله تعالى به بحسب ما اقتضته حكمته . وعليه الأثريّون كما قال القسطلاني [1] . ويؤيده ظاهر ماصح من قوله ، صلى

---

(١) هو أبو بكر، شهاب الدين ، أحمد بن محمد بن أبي بكر ، القسطلاني، من كبار علماء الحديث . ولد في القاهرة سنة ٨٥١ هـ ، وتوفي فيها سنة ٩٢٣ ومن مؤلفاته « إرشاد الساري لشرح صحيح البخارى » ، و « المواهب اللدنية في المنح المحمدية » .

الله تعالى عليه وسلم : « ما أظلّت الخضراء ، ولا أقلّت الغَبْراء ، من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذَرّ » .

ويحتمل أن يكون لوناً تخيلياً في طبقة من طبقات الهواء الشفاف الذي ملأ الله به ما بين السماء والأرض ، ويكون لها في نفسها لون حقيقي ، الله أعلم بكيفيته .

ولا بُعْدَ في أن يكون أبيض . وهو الذي يقضيه بعض الأخبار ، لكنا نحن نراه من وراء ذلك الهواء بهذه الكيفية كما نرى الشمس من وراء جام أخضر أخضرَ ومن وراء جام أزرق أزرقَ ، وهكذا .

وبعض الناس يروي أثراً ، لا صحة له . وهو أن ذلك من انعكاس لون جبل قاف عليها . وتعقّب بأن جبل قاف لا وجود له ، وبرهن عليه بما يرده ما جاء عن ابن عباس : أن وراء أرضنا بحراً محيطاً ، ثم جبلاً يقال له قاف ، ثم أرضاً ، ثم بحراً ، ثم جبلاً . وهكذا حتى عدّ سبعاً من كل . وخرج بعض أولئك عن عبد الله بن بريدة[1] : أنه جبل من زمرّد ، محيط بالدنيا ، عليه كنف السماء . وعن مجاهد مثله . ونقل صاحب حلّ الرموز : أن له سبعَ شعب ، وأن لكل سماء منها شعبة.

وأنا أقول : إن كل ذلك لا صحة له ، ويجب الجزم بأن السماء ليست محمولةً الا على كاهل القدرة ، وأنها محيطة بالأرض من سائر جهاتها كما روي عن الحسن

---

(١) هو أبو سهل ، عبد الله بن بريدة بن الحصيب ، الاسلمي ، أحد القضاة ورجال الحديث . ولد سنة ١٤ هـ وتوفي سنة ١١٥

وفي الزرقة ، الاحتمالان . وقد تعرض للون السماء ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » بما يقتضي مراجعته .

بقي الكلام في رؤية باقي السماوات ، وظاهر الآية يقتضيه ، وهو غير مسلم . وظاهر بعض الآيات يساعد على ذلك ، فنحتاج حينئذٍ الى القول بأن الباقي و إن لم يكن مرئياً حقيقةً لكنه في حكم المرئيّ ، ضرورةَ أنه اذا لم يكن لهذا عمادٌ لايتصور أن يكون لما وراءه عماد عليه بوجه من الوجوه . ويؤل هذا الى كون المراد : ترونها حقيقةً أو حكماً بغير عَمَد . وجوّز أن يكون المراد : ترون رفعها ، أي السماوات جميعاً ، بغير ذلك .

وقد تقدم الكلام على العرش و الاستواء ، وسنعود اليه فيما يناسب من الآيات .

ومعنى (تسخير الشمس والقمر) جعلهما طائعين لِما أريد منهما . (كلٌّ يَجري لأجل مسمى) أي يسير في المنازل والدرجات لوقت معين ، فإن الشمس تقطع الفلك في سنة ، والقمرَ في شهر ، لايختلف جَرْيُ كل منهما كما في قوله تعالى :(والشمس تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمرَ قدّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرْجُون القديم) . وهو المروي عن ابن عباس .

ومن المفسرين من قال : أي كلٌّ يجري لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره ، وهي:اذا الشمس كُوِّرت واذا النجوم انكدرت. وهذا مرادمجاهد من تفسير الأجل المسمى بالدنيا .

وعلى قول الفلاسفة المتأخرين إن للشمس حركةَ مركزها ، وهو معنى (تجرى لمستقر)

وزعم ابن عطية [1] أن ذكر الشمس والقمر قد تضمن ذكر الكواكب ، فالمراد من (كل) كل منهما ومما هو في معناهما من الكواكب .

والحق ما علمتَ ، والله العالم بما تضمنته آياته .

* * *

ومن آيات سورة الرعد ، قوله تعالى : (وهو الذي مَدَّ الأرض وجَعَل فيها رواسيَ وأنهاراً ، ومن كلِّ الثمَرات جَعَل فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغشي اللَّيْلَ النَّهارَ ، إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكّرونَ) — ٣ — .

هذه الآية متصلة بالآية التي قبلها . فإنه — سبحانه — لما ذكر من الشواهد العلوية ماذكر ، أردفها بذكر الدلائل السفلية ، فقال : (وهو الذي مدّ الأرض) . قال علماء الهيئة الجديدة : الأرض جِرم من الأجرام السماوية ، يعني انها جِرم من الأجرام التابعة للشمس ، وهي السيارات الدائرة حولها على أبعاد متفاوتة ، وسميت (النظام الشمسي) ، وشكلوا لذلك شكلاً في وسطه الشمسُ ، ثم عُطارد وهو أقرب الى الشمس من سائر السيارات المعروفة ، وبعده الزُّهَرَةُ ، ثم الأرض ، ثم قمرها ، ثم المريخ ، ثم فسحة واسعة فيها مئتان واثنان وسبعون جِرماً صغيراً تسمى النجيمات أو الشبيهة بالسيارات ، ثم المشتري ، ثم زُحَل ، ثم أورانوس ،

---

(١) يوجد مفسران اثنان يعرفان بابن عطية وهما : عبد الله بن عطية ، الدمشقي ، المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، وعبد الحق بن غالب ، الأندلسي ، المتوفي سنة ٥٤٢هـ ويفرق بينهما بأن يوصف عبدالله بالمتقدم ، وعبد الحق بالمتأخر ؛ ولم يفعل ذلك المؤلف رحمه الله

ثم نبتون ، ثم بُعْدٌ مهول وخلاء مجهول حتى ينتهي الى أقرب النجوم الثوابت التي يعدّ كل واحد منها شمساً لا يُرى توابعها للبعد الشاسع . و (النظام الشمسي) ينتهي عند نبتون ، أعني لا يعرف سيار أبعد من نبتون ، بل إنه الى الآن لم يكشف عن وجود جرم تابع للنظام الشمسي أبعد من المذكور . والنجوم الثوابت ، ليست من النظام الشمسي ، بل هي أنظمة مستقلة تُرَى منها شمسنا كما ترى هي من عندنا ، أي نقطاً لامعة نيرّة في القبة الزرقاء .

وقالوا في شأن الأرض أيضاً وحركتها : السيار التابع للنظام الشمسي — الذي نحن ساكنون عليه — هو الأرض ، وأنها كرية الشكل ، وأقاموا على ذلك دلائلهم المعلومة في كتبهم ، وأنها — على عظمها — سابحة في الفضاء ، وليست لها حافة يَنتهي اليها من يجوب سطحها ، كما اذا مشت ذبابة على بطيخة معلقة ، فهي لا تنتهي الى حافة ، كذلك الأرض الكرية الشكل السابحة في الفضاء ليس لها حافة ينتهي اليها من يجوب سطحها ، وهي عائمة في الفضاء .

وذهبوا إلى أن حركتها ، وكذا سائر الأجرام السماوية ، من الغرب الى الشرق ، لا كما يتراءى أن حركة هذه الأجرام من الشرق الى الغرب .

وذهبوا إلى أن لها حركة أخرى غير الحركة اليومية ، وهي الحركة السنوية . فللأرض عندهم حركتان : حركة يومية ، وهي دورانها على محورها مرةً من الغرب الى الشرق ، ومنها اختلاف الليل والنهار . وحركة من الغرب الى الشرق حول الشمس مرة واحدة كل سنة .

هذا ما ذكره علماء الهيئة الجديدة في شأن الأرض .

وقد تصفحت القرآن العظيم الشأن ، فوجدت عدة آيات نطقت بما يتعلق

بالأرض من جهة الاستدلال بها على وجود خالقها وعظمة باريها ، ولم يذكر فيها شيء مما يخالف ما عليه أهل الهيئة اليوم .

ولا ينافي كُرِيَتَها ما يدل ظاهرها على المد والبسط والفرش ، فإن هذا كله لاينافي الكرية ؛ لأن المراد من بسطها وتوسعتها ومدّها ما يحصل به الانتفاع لمن حلها . ولا يلزم من ذلك نفي كريتها ، لِما أن الكرة العظيمة — لِعظمها تُرَى كالسطح المستوي وكأن كل قطعة منها سطح مفروش يصح القعود والنوم عليه . والكرة كلما عظمت قربت أقواس سطحها الى الخط المستقيم .

وفي الشريعه دلائل كثيرة تدل على كرية الأرض والسماء ، منها اعتراف الأئمة باختلاف المطالع ، فإن الصبح في بعض البلاد يوافق المساء في بلاد أخرى ، وطلوع الهلال في بعض الآفاق يوافق غيبوبته في بلاد أخرى ، وهكذا الشمس وسائر الكواكب . ففي بعض الآفاق يرى القطب الشمالي فوق رؤوس أهله ، والقطب الجنوبي لايرى أصلاً ، وسكنة خط الاستواء يرون القطبين على الأفق . وفي بعض البلاد تكون الحركة فيه دولابية ، وفي البعض حمائلية ، وفي البعض رَحَوية . كل ذلك مبني على كُرِيَةِ الأرض ، ولولاها لما كان شيء من ذلك .

وقوله تعالى : (وهو الذي مدّ الأرض) ، لاينافي الكرية ؛ وما على الأرض من الجبال والأودية والبحار ، لا يخرج الأرض عن الكرية . فإن أعظم جبل بالنسبة اليها كنسبة سبع عرض شعيرة الى كرة قطرها ذراع .

وقوله تعالى : (وجعل فيها رواسي) معناه : جعل فيها جبالاً ثوابتَ في أحيازها ، من الرُّسو ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة وفي الخبر : لما خلق الله تعالى الارض ، جعلت تميد ، فخلق الله الجبال عليها ، فاستقرّت ، فقالت الملائكة : ربنا ، خلقتَ خلقاً

أعظم من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ، فقالوا : ربنا ، خلقتَ خلقاً أعظم من الحديد ؟ قال : نعم ، النار ، فقالوا : ربنا خلقتَ خلقاً أعظم من النار ؟ قال : نعم، الماء . فقالوا :ربنا ، خلقت خلقاً أعظم من الماء ؟ قال : نعم، الهواء . فقالوا : ربنا، خلقت خلقاً أعظم من الهـواء ؟ قال : نعم ، ابن آدم يتصدق الصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله .

وهذا أيضاً ، لا ينافي حركة الأرض اليومية والسنوية التي قال بهما أهل الهيئة؛ فإن الله تعالى لو لم يخلق في الأرض الجبال لمادت ، أي اضطربت ، والميد:اضطراب الشيء العظيم . فلما ألقى فيها الرواسي ، وهي الجبال الثوابت ، انتفى ذلك . ووجه كون الإلقاء مانعاً عن اضطراب الأرض ، أنها كسفينة على وجه الماء ، والسفينة اذا لم يـكن فيها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب الى جانب بأدنى حركة شيء ، وإن وضعت فيها أجرام ثقيلة تستقرّ . فـكذا الأرض ، لو لم يـكن عليها هذه الجبال لاضطربت ، فالجبال بالنسبة اليها كالأجرام الثقيلة الموضوعة في السفينة بالنسبة اليها .

والمقصود أن جَعْلَ الرواسي فيها لا يعارض حركتها بوجه من الوجوه ، كما أن السفينة اذا كان فيها أجرام ثقيلة تمنع اضطرابها وميلها من جانب إلى جانب لا ينافي حركتها . وسنزيد ذلك بياناً فيما يناسب من الآيات الآتية إن شاء الله تعالى .

و (الأنهار) المجعولة في الأرض كثيرة ، وذكر بعضهم أنها مئة وستة وتسعون نهراً ، وجاء في أربعة منها : أنها من الجنة ، وهي : سيحان وجيحان والفرات والنيل ، وكل واحد منها من أنهار الجنة . وجاء في بعض الأخبار مرفوعاً: « نهران مؤمنان ، ونهران كافران . أما المؤمنان فنيل والفرات ، وأمـا الـكافران فدجلة

وجيحون » . وحُمِل ذلك على أنه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، شبه النهرين الأولين — لنفعهما — بسهولة المؤمن ، والنهرين الآخرين بالكافر لعدم نفعهما كذلك ، فانهما إنما يخرج — في الأكثر — ماؤهما بآلة ومشقة ، والاّ فوصف ذلك بالإيمان والكفر على الحقيقة لا نعلم كيفيته .

وأما آخر الآية ، وهو قوله تعالى : (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليلَ النهارَ ، إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون) ، فتفسيره ليس من موضوع كتابنا . فإن التفكر فيها الى الحكم بأن يكون كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب الفائق ، لا بُدّ له من مكوّن قادر حكيم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

سورة إبراهيم

قال الله تعالى : (يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غير الارضِ والسموات ، وبَرَزُوا لِلهِ الوحدِ القهّارِ) — ٤٨ — .

تفسير الآية :

قال ابن عباس : (تبدل الأرض) يزاد فيها، وينقص منها ، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وما فيها ، وتمدّ مدَّ الأديم العُكاظي ، وتصير مستوية لاترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ، (و) تبدل (السماوات) بذهاب شمسها وقمرها ونجومها ، فحاصله يغيرّ كل عما هو عليه في الدنيا . وأنشد :

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدْتُهُمْ ولا الدار بالدار التي كنت أعلم

وقال ابن الأنباري [1] : تبدل السماوات بطيّها ، وجعلها مرةً كالمُهْل ومرةً وردةً كالدِهان .

وعن مجاهد : تكون الأرض كالفضة ، والسماوات كذلك .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد ، الأنباري ، من علماء اللغة والأدب والأخبار . ولد في الأنبار سنة ٢٧١هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٢٨ .ومن آثاره « عجائب علوم القرآن » و « غريب الحديث » و « شرح معلقة زهير » و « الزاهر » في اللغة

وعن ابن مسعود [1] : تبدل الأرض أرضاً بيضاء ، كأنها سبيكة بيضاء ، لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل فيها خطيئة .

وجاء في تبديل الأرض روايات أُخرى مذكورة في التفسير ، وكذا السماوات، كل ذلك في الآخرة . وذلك مما يجب الإيمان به على من آمن بالرسول ، وأن يقول المؤمن :

ربَّنا ، آمنا بما أنزلت ، واتَّبَعْنا الرسولَ ، فاكتبنا مع الشاهدين .

وليس هذا من موضوع فن الهيئة، فانهم يتكلمون على ما تصل اليه يد دلائلهم، والله ولي التوفيق .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود الهذلي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أجل الصحابة علماً وعقلا وأسبقهم إسلاماً ، وأقربهم إلى رسول الله صلى الله عيله وسلم . توفي — رحمه الله — في المدينة سنة ٣٢ هـ

سورة الحجر

وقال الله تعالى : (ولو فَتَحْنا عليهِـمْ باباً من السماءِ فظَلوا فيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) ، لَقالوُا : إنّما سُـكِّرَتْ أبصارُنا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥). ولَقَدْ جَعَلْنا في السماءِ بُرُوجاً ، وزَيّنّاها لِلنّاظِرينَ (١٦) ، وحَفِظْناها من كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧)، إلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ، فأَتبعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨)،والأرضَ مَدَدْناها ، وألْقَيْنا فيها رَواسِيَ ، وأَنْبَتْنا فيها من كلّ شيءٍ مَوْزُونٍ (١٩)، وجَعَلْنا لـكم فيها مَعايِشَ ومن لستم له بِرازِقِينَ (٢٠) . وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ عِنْدَنا خزائِنُهُ ، وما ننـزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) — ٢١ — .

في هذه الآية إثبات باب للسماء ، وأنها جِرْم من الأجرام . وأثبت لها بروجاً، وأثبت الشهب ، وأثبت للأرض امتداداً ، وألقى فيها رواسي لئلاّ تميد بساكنيها .

وبعض هذه الأمور ، قد مرّ بيانها غير مرة بما لا مزيد عليه ، ومع ذلك نتكلم في تفسيرها إجمالا :

فقوله تعالى : (ولو فتحنا عليهم) أراد به على هؤلاء المقترحين المعاندين ، والمراد بالباب غير أبواب السماء المعهودة التي وردت في حديث المعراج .

ومعنى (فظلّوا فيه يَعْرُجُونَ) : أي يصعدون في ذلك الباب بحسب ما تيسره لهم ، فيرون ما فيها من الملائـكة والعجائب طول نهارهم مستوضحين لِما يَرَوْنَهُ

كما يفيده (ظلوا) ؛ لأنه يقال : ظل يعمل كذا ، اذا فعله في النهار حيث يكون للشخص ظلّ .

ومعنى قوله : (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا) أي سُدَّت ومنعت من الإبصار حقيقة ، وما نراه نخيلّ لا حقيقة له ، وذلك لفرط عنادهم وغلوهم في المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق .

وقولهم : (بل نحن قومٌ مسحورون) أي قد سحرنا محمد ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، عند ظهور سائر الآيات الباهرة .

ثم إنه — تعالى — لمّا ذكر حال منكري النبوة، وكانت متفرعة على التوحيد، ذكر دلائله السماوية والأرضية ، فقال عزّ قائلاً : (ولقد جَعَلْنا في السماءِ بُرُوجاً ، وزَيَّنّاها للناظرين) والبروج : جمع بُرج ، وهو — لغةً — القصر ، والحصن . أي جعلنا في السماء قصوراً فيها الحرس ، أو أن المراد بالبروج الكواكب العظام ، أو الكواكب السيّارة ، أو أنها مطلق الكواكب . وعن ابن عباس تفسير ذلك بالبروج الأثني عشر المشهورة ، وهي ستة شمالية : ثلاثة ربيعية ، وثلاثة صيفية واولها «الحَمَلُ » ، وستة جنُوبية : ثلاثة خريفية ، وثلاثة شتائية وأولها «الميزان». وقد جمعها الشاعر بقوله :

حمل الثور جوزة السرطانِ ورعى الليث سنبلَ الميزانِ
ورمى عقربٌ بقوسٍ جُدَيّاً ومن الدلو مشرب الحيتان

وطول كل برج عندهم ثلاثون درجة ، وعرضه ثمانون درجةً ومئة وتسعون ، منها في جهة الشمال ، ومثلها في جهة الجنوب . وكأنها إنما سميت بذلك ، لأنها كالحصن أو القصر للكوكب الحالّ فيها .

وهي في الحقيقة أجزاء الفلك الأعظم ، وهو المحدِّد -- بزعمهم — المسمى بلسانهم « الفلك الأطلس » و « فلك الأفلاك » ، وبلسان الشرع بعكسه .

ولهذا يسمي الشيخ محي الدين بن عربي الفلك الأطلس بـ « فلك البروج » والمشهور تسمية الفلك الثامن — وهو فلك الثوابت — به ، لاعتبارهم الانقسام فيه . وكان ذلك لظهور مايتميّز به الأجزاء من الصور فيه ، وإن كان كل منها منتقلاً عما عينه الى آخَرَ منها ، لثبوت الحركة الذاتية للثوابت على اختلاف التوالي وإن لم يثبتها له ، لعدم الإحساس بها ، قدماءُ الفلاسفة ، كما لم يثبت الأكثرون حركتها على نفسها ، وأثبتها الشيخ أبو علي [1] ومن تبعه من المحققين .

وقد صرحوا بأن هذه الصور المسماة بالأسماء المعلومة توهمت على المِنطقة ومايقرب منها من الجانبين من كواكب ثابتة ينظمها خطوط موهومة ، وقعت وقت القسمة في تلك الأقسام ، وإنما توهموا لكل قسم صورةً ليحصل التفهم والتعليم ، بأن يقال : الدَّبران — مثلاً — عين الأسد .

وتعقب هذا القولَ بعضُهم ، وقال : هذا ليس بسديد عندي ، لأن تلك الصور لو كانت وهميةً ، لم يكن لها أثر في أمثالها من العالم السفلي ، مع أن الأمر ليس كذلك . فقد قال بطليموس في الثمرة : الصور التي في عالم التركيب مطيعة للصور الفلكية ، إذ هي في ذواتها على تلك الصور ، فأدركتها الأوهام على ما هي عليه . انتهى .

---

(١) هو -- على الأرجح — الحسين بن عبد الله بن سينا الفيلسوف المعروف ولد سنة ٣٧٠ هـ وتوفي سنة ٤٢٨ . وله مصنفات في الفلسفة ، والطب والطبيعيات واللغة .. ومن هذه المصنفات : « القانون » في الطب ، و « الشفاء » في الحكمة ، ورسالة في « الهيئة »

ثم هذه البروج مختلفة الآثار والخواص ، بل لـكلٍّ جزء من كلٍّ منها ـ وإن كان أقل من عاشرة بل أقلّ الأقلّ ـ آثار تخالف آثار الجزء الآخر . وكل ذلك آثار حكمة الله تعالى وقدرته عزّ وجلّ .

وقد ذكر الشيخ محي الدين بن عربي — في بعض كتبه — : أن آثار النجوم وأحكامها ، مفاضة عليها من تلك البروج المعتبرة في المحدِّد .

وفي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلاثمائة من (فتوحاته) : « أن الله تعالى قسم الفلك الأطلس اثنيْ عشر قسماً ، سماها بروجاً ، وأسكن كل برج منها مَلَـكاً ، وهؤلاء الملائكه أئمة العالم ، وجعل لـكل منهم ثلاثين خِزانةً ، يحتوي كل منها على علوم شتى ، يهبونِ منها للنازل بهم قدر ما تعطيه رتبته . وهي الخزائن التي قال الله تعالى فيها : (وإنْ من شيءٍ إلاّ عندَنا خزائنُهُ ، وما نُنَزّلُهُ إلاّ بقَدَرٍ معلوم) . وتسمى عند أهل التعاليم بـ « درجات الفلك » . والنازلون بها هم الجواري . والمنازل وَعَيُّوقاتها من الثوابت . والعلوم الحاصلة من تلك الخزائن الإلٰهية هي ما يظهر في عالَمِ الأركان من التّأثيرات ، بل ما يظهر في مقعَّر فلك الثوابت الى الأرض » .

الى آخر ما قال . وقد أطال الـكلام في هذا الباب ، وهو بمعزل عن اعتقاد المُحَدِّثين نَـقَلَةِ الدين .

ثم إن في اختلاف خواص البروج ـ بحسب ما تشهد به التجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطـة السماء ـ أدلُّ دليل على وجود الصانـع المختار ، جلَّ جلاله .

و (تزيين السماء) بما فيها الكواكب السيارات ونحوها ، وهي كثيرة ، لايعلم عددها إلاّ الله تعالى .

وقد أسلفنا أن المرصود منها الف ونيّف وعشرون كوكباً ، وأنهم رتبوها على على ست مراتبَ ، وسمّوها أقداراً متزايدةً سُدُساً سُدُساً ، حتىّ كان قطرُ ما في القَدَر الأول ستة أمثال مافي القدر السادس ، وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب ، وما دون السادس لم يثبتوه في المراتب ، بل إن كان كقطعة السَّحاب يسمونه سَحابيّاً ، والا فمظلماً .

وذُكر في (الكفاية) : أن ما كان منها في القدر الأول ، فجرمه مئة وست وخمسون مرة ونصف عشر الأرض. وجاء في بعض الآثار : أن أصغر النجوم كالجبل العظيم .

ويجوز أن يراد بالتزيين ترتيبها على نظام بديع ، مستتبعاً للآثار الحسنة ، فيراد بـ (الناظرين) المتفكرون المستدلّون بذلك على قدرة مقدرها ، وحكمة مدبرها جلّ شأنه .

والمراد بحفظها من الشيطان : إما منعه من التعرض لها على الاطلاق والوقوفِ على ما فيها في الجملة ، وإمّا المنع من دخولها والاختلاط مع أهلها على نحو الاختلاط مع أهل الأرض .

والمراد بالسمع المُسْتَرَقِ ، المسموعُ .

و (الشهاب) : الشعلة الساطعة من النار المُوقَدَة ، ومن العارض في الجوّ . ويطلق على الكواكب ، لبريقه كشعلة النار .

والمراد من مدّ الأرض بسطها وتوسعتها ، ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها . ولا يلزم ومن ذلك نفي كريتها ، لِما أن الـكرة العظيمة ـ لعظمها ـ ترى كالسطح المستوي . وقد سبق بيان ذلك .

والمراد بالرواسي في قوله تعالى : (وألقينا فيها رواسيَ) جبالٌ ثوابتُ ، جمعُ راسية ، جمع راسٍ . وقد بيّنّا حكمة إلقاء ذلك فيها عند الـكلام على قوله تعالى : (وألقى في الأرضِ رواسيَ أن تميدَ بـكم) .

والموزون في قوله تعالى : (وأنبتنا فيها من كل شيءٍ مـوزونٍ) أي مقدر بمقدار معيَّن ، تقتضيه الحـكمة . أو من كل شيء مستحسن متناسب . من قولهم : كلام موزون .

وقوله تعالى : (وجعلنا لـكم فيها مَعايِشَ) الى آخر الآية ، ليس معناه من موضوع كتابنا . والله أعلم .

سُورة النَحـــل

قال الله تعالى : (وألقىٰ في الأرضِ رواسيَ أَنْ تَمِيدَ بـكم وأنهاراً وسُبُلاً ، لعلـكم تهتدون (١٥) وعلاماتٍ وبالنجم هُمْ يهتدونَ) ـ ١٦ ـ .

هذه الآية شبيهة بآية (الرعد) التي سبق ذكرها قريباً ، ومع ذلك نتـكلم في تفسيرها على وجه الإجمال :

معنى (ألقى في الأرضِ رواسي) ألقى جبالاً ثوابتَ . ومعنى (أَنْ تميدَ بـكم) أي كراهة أن تميد ، أو لئلاّ تميد . والميد : اضطراب الشيء العظيم .ووجه كون الإلقاء مانعاً من اضطراب الأرض بأنها كسفينة على وجه الماء ، على ماسبق .

وللرازي هنا أسئلة غامضة ، ذُكرت مع أجوبتها في تفسير هذه الآية من (روح المعاني) .

و (الأنهار) سبق بيانها .

ومعنى قوله : (وعلامات . .) أنها معالم يستدلّ بها السابلة ، من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب . فقد حكي أن من الناس من يشم التراب ، فيعرف بشمه الطريقَ ، وأنها مسلوكة أو غير مسلوكة . ولذا سميت المسافة « مسافةً » أخذاً لها من السَّوْف بمعنى الشم ، وعليه قول القائل : « اذا الدَّليلُ استَافَ أَخْلافَ الطُّرُقْ » .وقد بينتُ ذلك في كتاب (بلوغ الأرَب) عند الـكلام على علومهم.

وعن ابن عباس : أنها معالم الطرق بالنهار . وعن الـكلبي [1] : أنها الجبال . وعن قتادة : أنها النجوم . وقال ابن عيسى : المراد منها الأمور التي يعلم بها ما يراد من خطّ أو لفظ أو إشارة أو هيئة . والظاهر ما ذكر أولاً .

وقوله تعالى : (وبالنجمِ هم يهتدون) أي بالليل في البر والبحر ، والمراد بالنجم الجنسُ ، فيشمَل الخُنَّسَ وغيرها مما يهتدى به . وعن السدّي [2] تخصيص ذلك بالثريّا والفرقَدَيْن وبناتِ نعش والجَدْي . وعن الفرّاء تخصيصه بالجدي والفرقدين وعن بعضهم أنه الثريا ، فإنه عَلَمٌ بالغلبة لها ، ففي الحديث : « اذا طلـع النجم ارتفعت العاهة » ، وقال الشاعر :

حتىّ اذا ما استقرّ النجمُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ منويّ ومحصود

وعن ابن عباس : أنه سأل النبيَّ ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن ذلك . فقال : « هو الجدي » . ولو صحّ هذا ، لا يعدل عنه. والجدي : هو جدي الفرقد، وهو — على ما في (المغرب) — بفتح الجيم وسكون الدال ، والمنجمون يصغّرونه فرقاً بينه و بين البرج ، ولعله كذلك لغةً .

واستدل على إرادة ما يعم ذلك بما في (اللوامح) عن الحسن : أنه قرأ (وبالنُّجُمِ) بضمتين . وزعم ابن عصفور [3] أن قولهم النُّجُم ، من ضرورة الشعر ، وأنشد :

---

(١) هو أبو النضر ، محمد بن السـائب الكلبي ، النسابة الراوية المفسر . ولد في الكوفة وتوفي فيها سنة ١٤٦ هـ وقد كان متروك الحديث

(٢) هو اسماعيل بن عبد الرحمن السـدي ، تابعي عالم بالمغازي والسير ، عارف بالتفسير . وقد توفي سنة ١٢٨ هـ

(٣) هوأبو الحسن ، علي بن مؤمن ، الحضرمي الاشبيلي ، المعروف بابن

إنّ الذي قضى بذا قاضي الحكمْ أنْ يَرِدَ الماءَ اذا غابَ النُّجُمْ .

وهو نظير قوله : حتى اذا أبتلّت حلاقيم الحُلُقْ

وجعل بعضهم الآية أصلاً لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق، فلا بأسَ بتعلّم ما يفيد تلك المعرفة . لكنّ معرفة عين القبلة — على التحقيق — بالنجوم ، متعسر بل متعذر كما أفاده أبو العباس أحمد بن البناء . لأنه إن اعتبرذلك بما يسامت رؤوس أهل مكة من النجوم ، فليس مسقط العمود منه على بسيط مكةَ هو العمود الواقع منه على بسيط غيرها من المدن . و إن اعتبر بالجدي ،فلا يلزم من أن يكون في مكة على الكتف أو على المنكب أن يكون في غيرها كذلك ، إلاّ لمن يكون في دائرة السمت المارّة برؤوس أهل مكة والبلد الآخر ، وذلك مجهول لايتوصل اليه الاّ بمعرفة ما بين الطولين والعرضين . وهو شيء اختلف في مقداره ، ولم يتعين الصحيح فيه، فلاينبغي أن يكون الواجب على المصلي الاتحري الجهة ، ومعرفةُ الجهة تحصل بالنجوم وكذا بغيرها مما هو مذكور في محله .

وفي (كتاب الأنواء) لابن قتيبة كلام مفيد يتعلق بطرق الاهتداء بالنجوم، وبيان أشهر قبائل العرب معرفةً به . والله الهادي الى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عصفور ، من أعلام عصره في العربية بالاندلس . ولد سنة ٥٩٧هـ وتوفي بتونس سنة ٦٦٩ . وله آثار منها « المقرب » في النحو و « الممتع » في التصريف ، و « شرح الحماسة »

سورة الإسراء

قال الله تعالى : (تُسَبِّحُ له السمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَنْ فيهِنّ ، وإنْ من شيء إلاّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ ، ولكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إنّه كانَ حليماً غَفُوراً) ـ ٤٤ ـ

المراد من (التسبيح) التسبيح المقالي على أصح الأقوال ، وللشيخ ابن القيمّ رسالة مشتملة على أربعين دليلاً من الكتاب والسنة في إثبات ذلك كما ذكره في كتابه (مفتاح دار السعادة) . وفي تفسير هذه الآية من (روح المعاني) كلام مفصل في هذا التسبيح. واختار الرازي في تفسيره سورة الإسراء أن الجمادات وغير المكلّف من البهائم إنما يسبح الله بلسان الحال ، ولا تسبيح له بلسان المقال . وهو قول كثير من الأشاعرة .

قال ابن السبكي[1] في (طبقاته) في الجزء الخامس عند ترجمة الرازي : « إن

---

(١) هو تاج الدين ، أبو نصر ، عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، العالم المؤرخ . ولد في القاهرة سنة ٧٢٧ هـ ثم تحول إلى دمشق وتوفي فيها سنة ٧٧١ . ومن آثاره: «طبقات الشافعية الكبرى» و « جمع الجوامع » في الأصول و «الأشباه والنظائر » في الفقه

الرازي احتج على ذلك بما لم ينهض عندنا » . ثم ذكر كلاماً طويلاً أثبت التسبيح المقالي ، فراجعه إن شئت .

والمقصود أن في هذه الآية دليلاً على أن السماوات والأرض قد أودع الله فيها إدراكاً لا نعقله ، وهو مدار تسبيحها المقالي ، كما أودع في سائر الموجودات مثل ذلك . فعلى المؤمن أن يؤمن بما ورد .

وليس هذا مما يتعلق بفن علم السماء ، فإن الدلائل العقلية لا تدركه .

وفي هذه السورة ـ قريباً من الآخر ـ قوله تعالى : (أو تُسْقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً ...) - ٩٢ ـ وفيه دليل على أن السماء جِرم . والكِسَفُ : جمع كِسْفَةٍ ـ كقِطْعَةٍ وقِطَعٍ ـ لفظاً ومعنى .

وفيها قوله تعالى : (وترى الشمس اذا طلعت) الآية (١٧) ، وقوله : (حتّى اذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمسِ ، وَجَدَها تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ...) ـ ٨٦ ـ .

فقد أثبت للشمس حركة الطلوع والغروب ، ولعلّ ذلك باعتبار نظر الناظر كما في راكب السفينة ، فإنه يرى ما على الساحل متحركاً وليس بمتحرك . وكذلك الغروب في عين حمئة ، فإن الناظر يراها كذلك اذا وقف على ساحل البحر .

ولعل (ذا القرنين) بلغ ساحل المحيط ، فرآها كذلك ؛ اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء . ولذلك قال (وجدها تغرب) ، ولم يقل : « كانت تغرب » .

سورة مريم

قال الله تعالى : (وقالوا: اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً(٨٨)لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً(٨٩) تَكادُ السمٰواتُ يتفطّرْنَ منهُ وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً) ـ ٩٠ ـ .

هذه الآية من أدلة كون السماوات أجراماً .

و (الفطر) : من عوارض الجسم الصُّلْب ، فإنه يقال إناء مفطور ، ولا يقال ثوب مفطور ، بل مشقوق . ونسبة التفطر الى السماوات والانشقاقِ الى الأرض ، إشارة الى أن السماء أصلب من الأرض . كذا أفاده بعض اللغويين .

وأهل الفن اليوم لا يعترفون بأجرام علوية غير الكواكب ، فإن بصائرهم لا تدركها .

سورة طـــه

قال الله تعالى : (تنزيلاً ممن خَلَقَ الأرضَ والسمٰواتِ العلى (٤) الرَّحْمٰنُ على العرشِ اُسْتَوَىٰ) ـ ه ـ .

في هذه الآية إثبات السماوات ، و إثبات جِرْمٍ أعظمَ منها وهو (العرش) . وقد مَرَّ الكلام على ذلك ، ونزيدك بياناً في (العرش) في هذا المقام فنقول :

العرش لغةً :سرير الملك، وفي الشرع سرير ذو قوائم ،له حَمَلةٌ من الملائكة فوق السماوات مثل القبة . و الدليل على أن له قوائم ماورد : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون ، وأكون أول من يصعق ، فاذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أأفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطُّور ؟ » . وعلى أن له حملةً من الملائكة قولُه تعالى : (الذين يَحْمِلُونَ العرشَ ومَن حوله يُسَبِّحُونَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنُونَ به) .

وذهب طائفة من أهل الكلام الى أنه مستدير من جميع الجوانب ، محيط بالعالم من كل جهة ، وهو محدِّد الجهات . وربما سموه « الفلك الأطلس » و « الفلك التاسع » .

ورده بعضهم بما ثبت في الشرع من أن له قوائم تحمله الملائكة ،على ما سمعت.

وقد أطنب الإمام تقي الدين أحمد بن تيميّة في المقالة الأولى من (كتاب العرش) وفي الرد على من قال إنه « الفلك التاسع » ، ونصه :

« إن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الافلاك المستديرة الكرية الشّكل : لا بدليل شرعي ولا بدليل عقلي . وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيره من الفلسفة ، فرأوا أن الافلاك تسعة ، وأن التاسع ـ وهو الأطلس ـ محيط بها ، مستدير كاستدارتها . وهو الذي يحركها الحركة الشرقية ، وإن كان لكل فلك حركةٌ تخصه غير هذه الحركة . ثم سمعوا من أخبار الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — ذكر عرش الله وكرسيّه، وذكر السماوات السبع ، فقالوا بطريق الظن: إن العرش هو الفلك التاسع ، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء : إما مطلقاً ، وإما أنه ليس وراءه مخلوق . ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وزعموا أن الله يُحْدِث فيه ما يقدره في الأرض ، أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة به ، أو في العقل الذي زعموا أنه الذي صدر عنه هذا الفلك ، وربما سماه بعضهم الروح ، وربما جعل بعضهم النفس هي الروح ، وربما جعل بعضهم النفس هي اللوح المحفوظ ، كما جعل العقل هو القلم . وتارةً يجعلون اللوح العقل الفعّال العاشر الذي لفلك القمر أو النفس المتعلقة به . وربما جعلوا ذلك بالنسبة الى الحق كالدماغ بالنسبة الى الإنسان ، يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون ، الى غير ذلك من المقالات التي شرحناها وبيّنّا فسادها في غير هذا الموضع .

ومنهم من يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة ، ويكون كاذباً

فيما يدعيه ، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة ، تقليداً لهم ، أو موافقةً لهم على طريقتهم الفاسدة كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفا)[1] وأمثالهم . وقد يتخيل في نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفاً ، كما يتخيل النصرانيّ التثليث الذي يعتقده . وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً ، وإنما هو تخيل لِما اعتقده . وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة اذا ارتاضوا ، صقلت الرياضة نفوسهم ، فتتمثل لهم أعتقاداتهم ، فيظنونها كشفاً . وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع .

والمقصود : أن ما ذكروه من أنّ العرش هو الفلك التاسع ، قد يقال : إنه ليس لهم عليه دليل ، لا عقلي ولا شرعي .

أما العقل ، فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك . ولكن دلّتهم الحركات والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه . وما لم يكن لهم دليل على ثبوته ، فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه .

مثال ذلك : أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلي يكسف العلوي من غير عكس . فاستدلّوا بذلك على أنه من فلك فوقه ، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة ، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك ، كفلك التدوير وغيره .

فأمّا ما كان موجوداً فوق هذا ، ولم يكن لهم ما يستدلّون به على ثبوته ، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم .

---

(١) جماعة سرية نشأت حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وعملت على جمع الأنصار حولها . وقد تركت آثاراً فلسفية دينية ، وعلمية مبسطة .

وكذلك قول القائل : إن حركة التاسع مبدأ الحوادث ، خطأ وضلال على أصولهم فإنهم يقولون : إن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت ، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع ، وكذلك السابع والسادس .

واذا كان لكل فلك حركة تخصه ، والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية ، فتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية — كانت حركة التاسع جزء السبب كحركة غيره ، والأشكال الحادثة في الفلك كمقارنة الكوكب لكوكب في درجة واحدة ومقابلته له اذا كان بينهما نصف الفلك ، وهو مئة وثمانون درجة ، وتثليثه له اذا كان بينهما ثلث الفلك ، وهو مئة وعشرون درجة ، وتربيعه له اذا كان بينهما ربعه ، [وهو] تسعون درجة، وتسديسه له اذا كان بينهما سدس الفلك ، [وهو] ستوّن درجة .

وأمثال ذلك من الأشكال إنما حدثت بحركات مختلفة ، وكل حركة ليست عن الأخرى . إذْ حركة الثامن التي تخصّه ، ليست عن حركة التاسع وإن كان تابعاً له في الحركة الكلية ، كالإنسان المتحرك في السفينة الى خلاف حركتها .وكذلك حركة السابع التي تخصّه ، ليست عن التاسع ، ولا عن الثامن . وكذلك سائر الأفلاك ، فإنّ حركة كل واحد التي تخصه ليست عما فوقه من الأفلاك ، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع كما زعمه من ظن أنه العرش ؟ كيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء ، لا اختلاف فيه أصلا ؟ فكيف يكون سبباً لأمور مختلفة ، لاباعتبار القوابل وأسباب أخر ؟

ولكن ، هم قوم ضالوّن . يجعلونه — مع هذا — ثلاثمائة وستين درجة ، ويجعلون لكل درجة من الأثر مايخالف الأخرى ، لاباختلاف القوابل ، كمن يجيء

الى ماء واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر مايخالف الآخر ، لا بحسب القوابل ، بل بجعل أحد أجزائه مسخّناً والآخر مبرِداً والآخر مُسعداً والآخر مشقياً .

وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال .

واذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة ، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع — رجماً بالغيب ، وقولا بلا علم .

هذا كله بتقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة ، إذْ في ذلك من النزاع والاضطراب ، وفي أدلة ذلك ، ما ليس هذا موضعه . وإنما نتكلم على هذا التقدير . فالأفلاك في أشكالها وإحاطة بعضها ببعض ، من جنس واحد . فنسبة السابع الى السادس ، كنسبة السادس الى الخامس . واذا كان هناك فلك تاسع ، فنسبته الى الثامن كنسبة الثامن الى السابع .

وأما (العرش) فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوق ، وأنه ليس نسبته الى بعضها كنسبة بعضها الى بعض . قال الله تعالى : (الذين يَحْمِلُونَ العرشَ ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به) الآية ، وقال سبحانه : (ويَحْمِلُ عرشَ رَبِّك فوقهم يومئذٍ ثمانية) . فأخبر أن للعرش حَمَلَةً اليومَ ويومَ القيامة ، وأن حَمَلَتَهُ ومَنْ حوله يسبّحون ويستغفرون للمؤمنين . ومعلوم أن قيام فلك من الأفلاك بقدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك ، لافرق في ذلك بين كرة وكرة . وإنْ قدر أنّ لبعضها في نفس الأمر ملائكةً تحملها ، فحكمه حكم نظيره . قال الله تعالى : (وتَرَى الملائكة حافِّينَ من حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) ، فذكر هناك أن الملائكة تحف مِنْ حوله ، وذكر في موضع آخرَ أن له حملةً ، وجمع في موضع ثالث بين حَمَلَتِهِ ومَنْ حوله فقال : (الذين يحملون العرشَ ومَنْ حَوْلَهُ) . وأيضاً فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض كما قال تعالى : (وهو الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ في ستّة أيّام وكان عرشُهُ على الماء) . وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره ، عن عمران بن حصين ، عن النبي — صلى الله تعالى عليه وسلم — أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض » .

الى آخر ماذكره في هذا المقام من (كتاب العرش) ، فراجعه .

والعرش غير الكرسي ، لحديثِ : «ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض» . وفي حديث آخر : «الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلاّ الله تعالى » .

سورة الأنبياء

قال الله تعالى : (أَوَ لَمْ يَرَ الذين كَفَرُوا أَنَّ السمٰواتِ والأَرضَ كانتا رَتْقاً ففتَقْناهما ، وجَعَلْنا من الماء كلَّ شيء حَيّ ، أفلا يؤمنون ؟ (٣٠) وجَعَلْنا في الأرضِ رَواسيَ أنْ تَميدَ بِهِمْ ، وجعَلْنا فيها فِجاجاً سُبُلاً لعلَهم يهتدون (٣١) وجَعَلْنا السماءَ سَقْفاً محفوظاً ، وهم عن آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وهو الذي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ ، كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) — ٣٣ —

هذه الآية فيها من مهمات فن الهيئة أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ثم فتقها ، وإلقاء الرواسي في الأرض أن تميد بهم ، وأن كلاً من الشمس والقمر سابح في فلكه . كل ذلك محل تدقيق النظر وإعمال الفكر .

أما مسأله الرتق والفتق ، فهي طويلة الذيل لدى الفلاسفة المتقدمين منهم والمتأخرين ، وهكذا لدى المتشرعين . فمنهم من يقول : إن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ، ففصل الله تعالى بينهما ، ورفع السماء الى حيث هي، وأقر الأرض . وقال كعب الأحبار : خلق الله السماوات والأرض ملتصقتين ، ثم خلق ريحاً ، فتوسطتهما ففتقَهما . وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر ، عليها دخان ملتصق بها ، ثم أصعد الدخان

وخلق منه السماوات ، وأمسك الفهر في موضعها ، وبسط منها الأرض ، وذلك قوله تعالى : (كانتا رتقاً ففتقناهما) فجل سبع سماوات . وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ، ففتقها فجعلها سبع أرَضين .

ورُوي في معنى الفتق والرتق غير ذلك . فقد أتى ابن عُمَرَ رجل ، فسأله عن الآية ، فقال : إذْهَبْ الى ذلك الشيخ فأسأله ، ثم تعالَ فأخبرني . وكان ابنَ عباس . فذهب اليه فسأله ، فقال : نعم، كانت السماوات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لاتنبت . فلما خلق الله تعالى للأرض أهلاً ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات . فرجع الرجل الى ابن عمر فأخبره ، فقال ابن عمر : الآنَ علمت أن ابن عباس قد أُوتي في القرآن علماً . صدق ابن عباس هكذا كانت .

وذهب المتأخرون من الفلاسفة الى أن العالم كله كان قطعة واحدة ،فأصابته صدمة ، فتفرق الى ما يرىٰ من الأجرام . وكثر منهم في ذلك القيل والقال.

والكلام على قوله تعالى : (وجعلنا في الأرض رواسي) الآية ، تقدم مراراً عند الكلام على أمثال هذه الآية . واعترض بعض الزائغين مع جوابه ، مذكور في التفسير عند الكلام على هذه الآية .

ومعنى قوله : (وجعلنا السماءَ سَقْفاً محفوظاً) أنها محفوظة من البِلىٰ والتغير على طول الدهر . والمراد أنها جعلت محفوظة عن ذلك الدهرَ الطويلَ ، ولا ينافيه أنها تطوى يومَ القيامة طَيَّ السجلِّ للكتب .

والى تغيّرها ودثورها ذهب جميع المسلمين ، ومعظم الفلاسفة ، ومنهم من خالف في ذلك .

وأما قوله : (وكلٌّ في فلك يَسْبَحُونَ) ، فالفلك في الأصل كل شيء دائر ، ومنه فِلكة المغزل . والمراد به هنا — على قول كثير — هو موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر . وعن الضحاك : هو ليس بجسم ، وإنما هو مدار هذه النجوم . وفيه القول باستدارة السماء .

وفي قوله : (كلٌّ في فلك) رمز خفي اليه[1] ، فإنه لا يستحيل بالانقلاب، وعليه أدلّه جمة . وفي تفسير هذه الآية كلام طويل .

وغاية ما نقول : إن الفلاسفة اليوم من الافرنج وأهل الأرصاد القلبية والمعارج المعنوية ، خالفوا قولَ بعضِ الفلاسفة المتقدمين المخالفَ لقولهم . وأمّا السلف الصالح ، فلم يصحّ عنهم تفصيل الكلام في ذلك ، لِما أنه قليل الجدوى، ووقفوا حيث صح الخبر ، وقالوا : إن اختلاف الحركات ونحوه بتقدير العزيز العليم ، وتشبثوا فيما صح وخفي منه بأذيال التسليم . والذي ينبغي القول به أن السماوات على طبق ما صحت به الأخبار النبوية في أمر الثِخَن وما بين كل سماء وسماء .

واستنبط بعضهم من نسبة السباحة للكوكب أنْ ليس هناك حامل له يتحرك بحركته مطلقاً ، بل هو متحرك بنفسه في الفلك تحركَ السمكة في الماء ، إذ لا يقال للجالس في صندوق أو على جذع يجري في الماء : إنه يسبح .

* * *

---

(١) فانك اذا ابتدأت من آخر الآية ، تكون أيضاً (كل في فلك) .
« المؤلف »

ومن الآيات في سورة الإنبياء قوله تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السماءَ كَطَيِّ السِجِلِّ للكُتُبِ كما بَدَأْنا أوّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وعداً علينا ، إنّا كنّا فاعلينَ) — ١٠٤ —

تفسير الآية :

(الطي) : ضد النشر ، أو الإفناء والإزالة . من قولك : إطْوِ عني هذا الحديث . وأنكر ابن القيّم في (كتاب مفتاح دار السعادة) إفناء السماء وإعدامها إعداماً صرفاً ، وأدّعى أن النصوص إنّما تدل على تبديلها وتغيرها من حال الى حال ويبعد القولَ بالإفناء ظاهرُ التشبيه في قوله تعالى : (كطيّ السجلّ للكتب) ، فإن الذي يطوى السجلّ ، وهو الصحيفة أو صحيفة العهد أو حجر يكتب فيه ثم سمي به كل ما يكتب فيه من قرطاس وغيره ، لا يفنيه بالطي ، بل الكتاب موجود بعده . وهكذا السماء اذا طويت لا تفنى . و الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها ، فسجلّها بعض أجزائها ، وبه يتعلق الطي حقيقةً . ثم إن الطيّ لا يختص بسماء دون سماء ، بل تطوى جميعها ، لقوله تعالى : (والسمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بيمينِهِ) .

ومعنى (كما بدأنا أولَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) أي : نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه ، أي في السهولة وعدم التعذّر ، أو في كونها إيجاداً بعد العدم ، أو جمعاً من الأجزاء المتفرقة . (وعداً علينا ، إنّا كنا فاعلينَ) ذلك بالفعل لا محالة . والأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها ، كالماضية في التحقق . أو قادرين على أن نفعل ذلك .

سورة الحج

قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ . .) — ١٨ — .

المراد بـ (السجود) دخول الأشياء تحت تسخيره — تعالى — وإرادته ، وقابليتها لما يحدث فيها . وفي (مفردات الراغب) : « السجود — في الأصل — التطامن والتذلل ، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله تعالى وعبادته ، وهو عام في الإنسان والحيوان والجماد . وذلك ضربان : سجود باختيار يكون للإنسان وبه يستحق الثواب ، وسجود بتسخير يكون للانسان وغيره من الحيوانات والنباتات . وخص بالشريعة من الركن المعروف من الصلاة ، وما جرى مجراه من سجود التلاوة وسجود الشكر » انتهى .

وأفرد الشمس والقمر والنجوم وما بعدها بالذكر ، لشهرتها ، واستبعاد ذلك منها بحسب الظاهر في بادىء النظر القاصر ، أو لأنها قد عبدت من دون الله . إمّا باعتبار شخصها ، أو جنسها. فالشمس عبدتها حِمْيَرٌ ، والقمرُ عبدته كِنانةُ ،وعبدَ الدَّبَرانَ من النجوم تميمٌ ، والشِعرى لَخْمٌ وقريش ، والثريّا طَيّءٌ وعُطاردَ أَسَدٌ ، والمِرْزَمَ ربيعةُ . وعبد أكثر العرب الأصنامَ المنحوتة من الجبال . وعبدت غَطَفانُ العُزّى ، وهي سَمُرَةٌ واحد السَّمُر . ومن الناس من عبد البقر .

فهذه الآية فيها دليل على أن الأجرام العلوية ، والأجرام السفليه ، لها عبادة مخصوصة لرب العالمين ، جارية على حسب إرادة مبدع السماوات والأرَضين .

* * *

ومنها قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في الأرضِ ، والفُلْكَ تجري في البَحْرِ بأمرِهِ ، ويُمْسِكُ السماءَ أَنْ تَقَعَ على الأرضِ إلاّ بإِذْنِهِ . إنّ اللهَ بالناسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) — ٦٥ —

المراد بإمساكها حفظُ تماسكها بقدرته — تعالى — بعد أن خلقها متماسكة آناً فآناً ، وعدم تعلق إرادته بوقوعها قِطَعاً قِطَعاً ، أو بالجاذبية التي يقول بها متأخرو الفلاسفة ،وهي أيضاً من آثار قدرته . والمعروف من مذهب سلف المسلمين أن السماء غير الفلك ، وأنها ثقيلة محفوظة عن الوقوع بمحض إرادته وقدرته التي لا يتعاصاها شيء ، لا ستمساكها بذاتها .

سورة المؤمنون

قال الله تعالى : (ولقد خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وما كُنّا عن الخَلْقِ غافلينَ) — ١٧ — .

الطرائق : جمع طريقة ، بمعنى مطروقة ، وهي السماوات السبع . من طرق النعل والخوافي اذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض . فهذا كقوله تعالى : (الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ طِباقاً) .ولكل من السبع نسبة وتعلق بالمطارقة ، فلا تغليب. أو جمع طريقة بمعناها المعروف، وسميت السماوات بذلك ، لأنها طرائق الكواكب في مسيرها . وهذا عين مذهب الفلاسفة المتأخّرين القائلين بالجاذبية ودوران الكواكب على الشمس. أو طرائق الملائكة في هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد. أو سميت طرائق لأن كل سماء طريقةً وهيئةً غير هيئة أخرى ؛ لأن الله تعالى أودع في كل سماء مالم يودعه في الأخرى .

وقوله تعالى : (وما كُنّا عن الخَلْق غافلين) يراد منه بالخلق المخلوقُ ، وهو السماوات السبع . أي : وما كنا عنها غافلين ، بل نحفظها عن الزوال والاختلال وتدبير أمرها . ففي هذه الآية دليل وأيّ دليل لأهل فن الهيئة الجديدة .

سورة النور

قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له مَنْ في السَّمٰواتِ والأرضِ ، والطيرُ صافّاتٍ ، كلٌّ قد عَلِمَ صَلاتَهُ وتسبيحَهُ ، واللهُ عليمٌ بما يفعَلُون (٤١) ولِلهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأرضِ ، والى اللهِ المَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجي سَحاباً ، ثُمَّ يؤلِّفُ بينَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فترى الوَدْقَ يَخْرُجُ من خِلالِهِ ، وينزِّلُ من السماءِ من جِبالٍ فيها من بَرَدٍ ، فيُصِيب به مَنْ يشاء ، ويَصْرِفُهُ عَمَّنْ يشاء . يكادُ سَنا بَرقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار (٤٣) يقلِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ ، إنَّ في ذٰلك لَعِبْرَةً لأولي الأبصار [1]) — ٤٤ — .

تفسير هذه الآية يحتاج الى كلام طويل ، ولسنا بصدده ، فإنه مذكور في التفسير . وما يخصّنا منه ، تسبيح الأجرام العلوية والأجسام السفلية والمخلوقات السماوية والأرضية ، وبيان المراد بصلواتهم .

أما التسبيح ، فليس المراد به التسبيح الحاليّ ، وهو الدلالة على الخالق ، إذ لامعنى حينئذٍ لقوله : (كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه) أي دلالته ، بل المراد به التسبيح المقالي .

---

(١) لايخفى أن بين قوله : (يذهب بالأبصار) وقوله : (لأولي الابصار) جناساً تاماً ، فهو كقوله : (يوم تقوم الساعة ، يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) . « المؤلف »

والمراد بالصلاة الدعاء والابتهال . وتقديمها على التسبيح في الذِكر ، لتقدمها عليه في الرتبة . أو المراد بالصلاة والتسبيحِ ما ألهمه الله — عزَّ وجلَّ — كلَّ واحد من تلك المخلوقات من الدعاء والتسبيح المخصوصَيْن به ولا بُعْدَ في هذا الإلهام ، فقد ألهم سبحانه كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة لايكاد يهتدي اليها جهابذة العقلاء . وهذا مما لاسبيل الى انكاره أصلاً . كيف لا وإن القنفذ مع كونه أبعدَ الحيوانات من الإدراك قالوا : إنه يحس بالشمأل والجَنُوب قبل هبوبهما ، فيغيرّ المدخل الى جحره . وقد تقدم أحسن كلام مما يناسب المقام في آية سوره الإسراء .

وأما قوله : (وننزل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَد) ، فالبَرَد معروف ، سمي بَرَداً لأنه يبرد وجه الأرض ، أي يقشره . مِنْ : بردت الشيء بالمبرد .

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذه الجبال . فعن مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة ، وبالجبال حقيقتها . قالوا : إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً من بَرَد ، كما خلق في الأرض جبالاً من حجر . وليس في العقل ماينفيه من قاطع ، فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها .

والفلاسفة لهم غير هذا الرأي في البَرَد ونزول الوَدْق ، أعني المطر . وهو كلام وصلت اليه أيدي أذهانهم ، لا يعوَّل عليه عند أهل الشريعة . وهو مذكور في كتب التفسير وكتب علم الطبيعة .

غير أن أهل الأرصاد اليوم كشفوا في القمر جبالاً ووهاداً وأودية ، وهكذا

الشمس وسائر السيارات ، وظنوا أن فيها مخلوقات نحو سكنة الأرض ، وزعموا أن فيها بحاراً وأنهاراً .

فلعلّ جبال البَرَد المذكورة في الآية من تلك الجبال التي في هاتيك الأجرام ، فيوصله الله الى الأرض بكيفية لاندركها ، وهو على كل شيء قدير .

* * *

سورة الفرقان

قال الله تعالى: (ويَوْمَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغَمامِ ، ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلا) ـ ٢٥ ـ.

المراد بالسماء المظلّةُ لنا ، وبالغمامِ السَّحابُ المعروف . أي تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها ، ولا مانع من أن تشقق به كما يشق السنام بالشفرة ، والله تعالى على كل شيء قدير . وعن مجاهد : إنه الغمام الذي يأتي الله تعالى فيه يوم القيامة كما قال : (هل ينظُرُونَ إلاّ أن يأتيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ من الغَمامِ) ، والمراد بالسماء مايعم السماوات كلها ، وتشقق سماء سماء . وكيفية نزول الملائكة منها ، مذكورة في التفسير .

* * *

ومن آيات هذه السورة ، قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ الى رَبِكَ كَيْفَ مَدَّ الظِلَّ ، ولو شاءَ لَجَعَلَهُ ساكناً ، ثم جَعَلْنا الشمسَ عليه دليلاً (٤٥) ثم قَبَضْناه إلينا قَبْضاً يسيراً (٤٦) وهو الّذي جَعَلَ لكم الّليْلَ لِباساً ، والنومَ سُباتاً ، وجَعَلَ النَّهارَ نُشُورا) — ٤٧ — .

دلت هذه الآية على أن الشمس متحركة ، لأن الظلّ تابع لها ، لأنه يكون من مقابلة كثيف — كجبل أوماء أو شجر — للشمس عند ابتداء طلوعها .ولوشاء لجعله ساكناً . وذلك بأن لا يجعل سبحانه للشمس عليه (أي على نسخه) سبيلاً ،

بأن يطلعها ولا يدعها تنسخه ، أو بأن لا يدعها تغيرّه باختلاف أوضاعها بعد طلوعها .

وقوله : (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) ، معناه : جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهوره للحس .

وقوله : (ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً) أي : ثم أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدّاً عند إيقاع شعاع الشمس موقعه ، أو بإيقاعه كذلك ، ومحوناه على مهل قليلاً قليلا بحسب مسير الشمس . وفيه دليل على كرية الأرض ، لأنها لو لم تكن كريةً ، لتساوت الأقطار في الأفياء والظِلال . مع أن كثيراً من الأقطار يكون فيه ليل ، وفي أقطار أخرى نهار .

ولأرباب الهيئة الجديدة أن يقولوا : إن الظلال تابع لحركة الشمس على حسب ما يراه الرائي . وإلاّ ، ففي الحقيقة أن الأرض هي المتحركة على مركزها ، وهي الشمس . ولا بِدْعَ أن تكون الشمس دليلاً على الظل ، وإن كانت الحركة للأرض .

* * *

ومنها قوله تعالى : (وتوكّلْ على الحيِّ الذي لا يَمُوتُ ، وسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وكفى به بذنوب عباده خبيراً (٥٨) الّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما في ستّةِ أيّامٍ ، ثم استوي على العرش الرحمٰنُ فَسْئَلْ به خَبيرا) — ٥٩ — .

سبق الكلام على مثل هذه الآية ، وبيّنّا المراد من الأيام الستة والاستواء على العرش والعرش بما فيه كفاية .

سُورة الشُعَـــرَاء

" قال الله تعالى: (فَأَسْقِطْ علينا كِسَفاً من السَّماءِ إن كنت من الصادقين) ـ١٨٧ـ.

(الـكسف): القطع ، جمع كِسْفَـة كَقِطْعَةٍ . والمراد بـ (السماء) إمّا المُظِلّة، وهو الظاهر ، وإمّا السحاب .

وأهل الهيئة اليوم يقولون : كثيراً ما تقع أحجار من السماء ، أي من الأجرام العلوية . وهي محفوظة في متاحفهم ، ولهم في ذلك كلام طويل مـــذكور في كتب الطبيعة .

سورة النمل

قال الله تعالى : (ويَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ في السّمٰواتِ ومَنْ في الأرضِ ، إلاّ مَنْ شاءَ اللهُ ، وكلٌّ أتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧) وترى الجِبالَ تَحْسَبُها جامدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ . صُنْعَ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ . إنَّهُ خبيرٌ بما تفعلون) — ٨٨ — .

ربما استدلّ علماء الهيئة المتأخرون على ما ادّعوه من حركة الأرض اليومية والسنوية فانهم يقولون : إن الرائي يرى الجبال ساكنة ، وهي متحركة أشد الحركة .

والمفسرون يرون غير هذا الرأي ، ويقولون : (وترى الجبال تحسبها جامدةً) أي ثابتةً في أماكنها لا تتحرك (وهي تمر مر السحاب) أي : وترى الجبال رأيَ العين ساكنةً ، والحال أنها تمر في الجو مرّ السحاب الذي تسيرّه الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك يوم القيامة وخراب العالم ، لا أنها تمر مرّ السحاب اليوم . وإلاّ لما كان بتخصيص الجبال لذلك وجه، فان الجبال والأنهار والفلوات والبراري كذلك، والله يُحق الحق وهو يَهدي السبيل .

سورة العنكبوت

قال الله تعالى : (ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ ، وسخَّرَ الشمسَ والقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ — اللهُ — فأَنَّىٰ يُؤْفَكُون) — ٦١ — .

المراد بتسخير الشمس والقمر جريانهما على قانون واحد لا يتغير ، فهما آيتان عظيمتان من آيات الله خاضعتان لِما يراد بهما من مصالح العالم واختلاف الأزمنة وتربية النبات وإنضاج الثمار والحبوب وإضاءة العالم . فسبحان من بيده ملكوت كل شيء ، واليه ترجعون .

سُورة الـــرُّوْم

قال تعالى : (ومن آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ، ويُنَزِّلُ من السَّماءِ ماءً فيُحْيِي به الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها . إنَّ في ذٰلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون (٢٤) ومن آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ والأرضُ بأمرِهِ ، ثمَّ إذا دعاكُمْ دَعْوَةً من الأرضِ اذا أنتم تَخْرُجُونَ (٢٥) وله مَنْ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ ، كُلٌّ له قانِتُونَ) ـ ٢٦ ـ .

تفسير هذه الآية قد مرَّ مراراً في تفسير مثلها . فقوله : (وينزل من السماء ماء) أراد — بالسماء المُظِلَّةَ ، أو السحابِ . والله سبحانه وتعالى ينزل المطر من السحاب المتكوّن من الأبخرة المتصاعدة كما ذكر الطبيعيون ، وعلى ذلك قول الهُذَليّ :

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم ترفَّعَتْ متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

ومعنى (أن تقوم السماء والأرض بأمره) أي بقوله تعالى : « قُومَا » وبإرادته عزّ وجلّ . والتعبير عنها بـ « الأمر » للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادىء والأسباب . وليس المراد بإقامتهما إنشاؤُهما لأنّه قد بيّن حاله بقوله تعالى : (ومن آياته خَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ) ، ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس فإن ذلك من مقمّمات إنشائهما وإن لم يصرح به تعويلاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله تعالى : (خَلَقَ السمٰواتِ بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها) ، ولا قيامهما وبقاؤهما على ماهما عليه

الى أجلها الذي أُشير اليه بقوله تعالى : (ما خَلَقَ اللهُ السمٰواتِ والأرضَ إلاّ بالحقِّ وأَجَلٍ مُسَمًّى) .

وذهب الرازيُّ الى أن القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول ، الى آخر ماقال .

وما ذهب اليه أهل الهيئة المتأخرون من أنّ قيام العالم العلوي والسفلي بالجاذبية، لايخالف الآية الكريمه ، فالله سبحانه هو الذي أودع تلك الجاذبية ، وبأمره كانت .

سُورة لُقْمَان

قال الله تعالى : (خَلَقَ السَّمٰواتِ بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، وألقىٰ في الأرضِ رواسِيَ أن تَميدَ بِكُمْ ..) — ١٠ — .

أي خلقها بغير عَمَدٍ مرئيّة على التقييد للرمز الى أنه تعالى عمدها بعَمدٍ لا تُرى، وهي عمد القدرة . وعلى قول علماء الهيئة في زماننا : عمد الجاذبيّة ، ولا يخرج ذلك عن قدرة مودعها جلّ جلاله . وقد مرّ مثل هذا فيما سبق مراراً .

وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنّ الله يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي الى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وأَنّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) — ٢٩ — .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية . وليس في العقل الصريح والنقل الصحيح ما يأبى إثبات الجريان لكلٍ من النيرين ، ومنتهى هذا الجري العام يوم القيامة .

سورة السجدة

قال الله تعالى : (اللهُ الذي خَلَقَ السّمٰواتِ والأَرْضَ وما بينهُمٰا في سِتّةِ أيّامٍ ثُمَّ أستوى على العَرْشِ ، ما لكم من دُونِهِ من وَلِيٍّ ولا شَفِيعٍ ، أفلا تتذكّرُونَ (٤) يُدَبّرُ الأمرَ من السماء الى الأرضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ اليه في يومٍ كان مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مما تَعُدُّونَ) — ٥ — .

قد سبق المراد بالأيام الستة ، والكلام على العرش وبحث الآستواء .

سورة سبأ

قال الله تعالى:(أفلم يَرَوْا إلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ من السَّماءِ والأَرْضِ؟ إنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بهم الأَرْضَ ، أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء . إنّ في ذٰلك لآيةً لِكُلِّ عبدٍ مُنِيبٍ) — ٩ — .

قد ذكرنا سابقاً أن (الكسف) هي القطع ، وأنّ المراد من السماء إما المُظلّة وإمّا السحاب ، فقد أمطر الله سبحانه وتعالى على بعض الأمم السابقين حجارة من السماء .

سورة فاطر

قال الله تعالى : (يُولِجُ اللّيلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النهارَ في الليلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقمرَ ، كُلٌّ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذٰلكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، له المُلْكُ . والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَملِكُونَ من قِطْمِير) — ١٣ — .

سبق الكلام في معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، وبيان المراد بجريانهما لأجل مسمى ، فلا حاجة الى الإعادة .

وقال الله تعالى : (إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰواتِ والأرضَ أَنْ تَزُولا ، ولَئِنْ زالَتا إنْ أَمْسَكَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُورا) — ٤١ — .

المراد (بالزوال) : من الناس مَنْ قال « سقوطهما » . فمن الفلاسفة من كان يقول : إن السماء والأرض لم تزالا هابطتَيْن ، ومنهم من كان يقول : لم تزالا صاعدتين في هذا الفضاء الذي لا منتهى له . وكلا القولين باطلٌ ، فإنّ الله تعالى قد أمسكهما بقدرته ، أو بالجاذبية التي هي من آثارها . وبعض المتشرعين كان يقول : إن الله أمسكهما عن الحركة ، فليستا بمتحركتين .

وأعدل الأقوال ما توافق عليه العقل الصريح والنقل الصحيح .

سورة يس

قال الله تعالى : (وآيةٌ لهم اللَّيْلُ نَسْلَخُ منه النَّهارَ ، فاذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) والشمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها ، ذٰلك تَقْدِيرُ العزِيزِ العَلِيم (٣٨) والقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حتّى عاد كالعُرْجُونِ القديم(٣٩) لا الشمسُ يَنْبَغِي لها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ، ولا اللَّيْلُ سابقُ النَّهارِ ، وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون) — ٤٠ — .

في هذه الآية : جَرَيان الشمس لمستقرّ ، وتقدير القمر منازل ، فنتكلم عليهما:

أمّا جريان الشمس لمستقرّ ، فمعناه : لحدّ معينّ ، تنتهي اليه من فَلَكها في آخر السنة . أو لمنتهى لها من المشارق اليومية والمغارب ؛ لأنها تتقصّاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع، فذلك حدّها ومستقرها ، لأنها لا تعدوه. أو لحدٍّ لها من مسيرها كل يوم في رأي عيوننا ، وهو المغرب . أو لِكَبِد السماء ودائرة نصف النهار .أو لاستقرار لها ومكثٍ في كل برج من البروج الاثني عشر ، على نهج مخصوص . أو تجري لبيتها، وهو برج الاسد ، واستقرارها عبارة عن حسن حالها فيه ، وهذا غير مقبول الا عند أهل الأحكام [1] ، ولا يخفي حكمهم على محققي أهل الإسلام. أو المعنى : تجري الى وقتٍ لها لا تتعدّاه، وعلى هذا «مستقرّها» انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا . وفي الحديث عن أبي ذرّ ، قال : كنت مع النبي ،

(١) أي أصحاب التنجيم (الأثري)

صلى الله تعالى عليه وسلم ، في المسجد عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذر ،أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله تعالى ورسوله أعلم . قال : تذهب لتسجد ، فتستأذن للرجوع ، فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها ، ارجعي من حيثُ جئتِ ، فتطلع من مغربها . فذلك قوله عزّ وجل : (والشمس تجري لمستقرّ لها) . وفي رواية : أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم . قال : إن هـذه تجري حتى تنتهي الى مستقرّها تحت العرش ، فتخرّ ساجدة ، الحديث .

قال النووي : قال جماعة بظاهر الحديث . قال الواحدي : وعلى هـذا القول إذا غربت الشمس كل يوم ، استقرت تحت العرش الى أن تطلع . ثم قال النووي: وسجودها بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها .

والأمر في ذلك مشـكل اذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش ، فانه لاخلاف في أنها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين ، والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين ، وبين الليل والنهار اختلافٌ ما في الطول والقصر عند خط الاستواء . وفي بعض البلادقد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب . وفيعرض تسعين لاتزال طالعة مادامت في البروج الشمالية، وغاربة مادامت في البروج الجنوبية ، فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على ما فُصِّلَ في موضعه .

والأدلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها ، وإلا كانت ساكنة ، بناء على أن غروبها في أفقٍ طلوعٌ في غيره .

وفي (رُوح المَعاني) :

« والذي يخطر بالبال ، في حلّ ذلك الإشكال ، والله أعلم بحقيقة الحال — أن

الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة، كما ينبىء عن ذلك قوله —تعالى— الآتي : (وكل في فَلَكٍ يسبحون) حيث جيء بالفعل مسنداً الى ضمير جمع العقلاء، وقوله تعالى : (إني رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُمْ لي ساجدِينَ) لنحو ما ذُكر . ويدل عليه ظاهر ماروُي عن أبي ذرّ من أنها تسجد وتستأذن ، فإن المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال » .

ثم قال : « والشوهد من الكتات والسنّة وكلام العترة على كونها ذات إدراك وتمييز ، مما لا يكاد يحصى كثرةً . وبعضه يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص . وبعضه يدل على ثبوته لها باعتبار دخولها في العموم ، أو بالمفايسة ، إذْ لاقائل بالفرق. ومتى كانت كذلك ،فلا يبعد أن تكون لها نفس ناطقة كنفس الإنسان . بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جداً .

و (الحكماء المتقدمون) أثبتوا النفس للفلك ، وصرح بعضهم بإثباتها للكواكب أيضاً ، وقالوا : كل ما في العالم العلوي من الكواكب والأفلاك الكلية والجزئية والتداوير ، حي ناطق . والأنفس الناطقة الإنسانية اذا كانت قدسية ، قد تنسلخ عن الأبدان ، وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى ، كما يتمثل جبريل ويظهر بصورة (دحيةَ) أو بصور بعض الأعراب كما جاء في صحيح الأخبار ، حيث يشاء الله ، مع بقاء نوعٍ تعلّقٍ لها بالأبدان الأصلية يتأتّى معه صدور الأفعال منها ، كما يحكى عن بعض الأولياء أنهم يرون في وقت واحد في عدة مواضع . وما ذاك الا لتجرّد قوة أنفسهم ، وغاية تقدّسها ، فتمثل وتظهر في موضعٍ وبدنها الأصلي في موضع آخرَ :

لاتَقُلْ : دارُها بشَرْقيِّ نَجْدٍ كلُّ نَجْدٍ للعامِرِيّةِ دارُ

وهذا أمر مقرر عند (الصوفية) ، مشهور فيما بينهم . وهو غير طي المسافة . وإنكار من ينكر كلاً منهما عليهم ، مكابرة لاتصدر إلاّ عن جاهل أو معاند.

وقد عجب العلامة التفتازاني من بعض فقهاء أهل السنة حيث حكم بالكفر على معتقدِ ماروُي عن ابراهيم بن أدهم أنهم رأوه بالبصرة يومَ التروية ورُئِيَ ذلك اليومَ بمكة . ومبْناه زَعْمُ أن ذلك من جنس المعجزات الكبار ، وهو مما لايثبت كرامة لولي . وأنت تعلم أن المعتمد عندنا جواز ثبوت الكرامة للولي مطلقاً ، إلافيما يثبت الدليل عدم إمكانه ، كالاتيان بسورة مثل إحدى سُوَر القرآن . وقد أثبت غير واحد تمثيل النفس وتطورها لنبينا ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الوفاة ، وادّعى أنه يُرى في عدّة مواضع في وقت واحدمع كونه في قبره يصلي. وصح أنه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، رأى موسى يصلّي في قبره عندالكثيب الأحمر، ورآه في السماء،وجرى بينهما ما جرى في أمر الصلوات المفروضة . وقد رأى ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليلةَ أُسْرِيَ به جماعةً من الأنبياء غير موسى في السماوات مع أن قبورهم في الأرض، ولم يقل أحد إنهم نقلوا منها اليها . وليس ذلك ممّا ادّعى الحكميون استحالته من شغل النفس الواحدة أكثر من بدن واحد ، بل هو أمر وراءه كما لايخفى على من نوّر الله بصيرته .

فيمكن أن يقال إن للشمس نفساً مثل تلك الأنفس القدسية ، وأنها تنسلخ عن الجرم المشاهد المعروف مع بقاء نوع من التعلق لها به ، فتعرج الى العرش ، فتسجد تحته بلا واسطة ، وتستقيم هناك ، وتستأذن . ولا ينافي ذلك سير هذا الجرم المعروف وعدم سكونه حسب مايدعيه أهل الهيئة وغيرهم . ويكون ذلك اذا غربت وجاوزت الأفق الحقيقي،وأنقطعت رؤية سكان المعمور من الأرض إيّاها ،ولايضرّ

فيه طلوعها اذ ذاك في عرض تسعين ونحـوه ؛ لأن ما ذكرناه من كون السجود والسكون باعتبار النفس المنسلخة المتمثلة بما شاء الله تعالى ، لاينافي سير الجسم المعروف، بل لو كان نصف النهار في خط الاستواء لم يضرّ أيضاً . ويجوز أن يقال :سجودها بعد غروبها عن أُفق المدينة ، ولا يضرّ فيه كونها طالعةً اذ ذاك في أفق آخر ، لِما سمعت . الاّ أن الذي يغلب على الظن ما ذُكر أوّلاً » انتهى كلامه .

ثم ذكر هذياناً آخر ادّعاه بعض المتصوفة من زيارة الكعبة لبعض الأولياء وهي في موضعها . وادعى الشيخ محي الدين أن بينه وبينها مراسلات ومكاتبات . وكل ذلك لم يثبت في الشريعة . وهو دعوى بلا دليل ، فلا تلتفت اليه وإن جلّ قائله .

والذي قاله المتأخرون من الفلاسفة ، اهل الفن الجديد المتشرّعين ، أن هـذا الجرم العظيم مركز للسيارات ، ويُحْسَبُ — بخفاء حركته — ثابتاً . وليس كذلك؛ لأن الحركة لازمة له .

وقد حققوا حركة الشمس من الشامات المرئية في قرصها ، بواسطة الآلة الرصدية التي يشاهَدُ بها أحوال الأجرام الفلكية ، فظهرت لهم أوضاع مختلفة في شعاعها وشامات سُودٌ في قرصها . وهذه الشامات تبدو من طرفها الشرقي ، وتغيب في طرفها الغربي في نحو أربعة عشر يوماً . وبعد مثل هذه المدة تظهر من طرفها الشرقي. وهذة تدل على أنها — مع الشامات — تتمّ الدورة في سبعة وعشرين يوماً واثنتيْ عشرة ساعة وعشرين دقيقة . فاذا نقص من ذلك يوم واثنتان وعشرون ساعة واثنتا عشرة دقيقة للدور السنوي للأرض ، بقي لدور الشمس على محورها خمسة وعشرون

يوماً وأربع عشر ساعة وثمان دقائق. وبهذا يثبت أنها جرم كُرِيٌّ ذو قطبين،مثل الأرض ، يدور على مركز آخر .

قالوا : وهذا هو المراد بقوله تعالى : (والشمس تجري لمستقرّ لها) ، فإنه يدل على دوران الشمس على مركز آخر ، ويقال : إنه كوكب من كواكب الثريا ، أو يقال : معنى جريانها لمستقر أنها تجري على مركزها ومحورها .

فإن ثبت هذا في الشريعة ، فهو خير من تلك الوساوس والخيالات السابقة .

(ذلك) أي الجري المفهوم من « تجري » (تقدير العزيز العليم) المحيط علمه بكل معلوم . وذكر بعضهم في حكمة جريها حتى تسجد كل ليلة تحت العرش تجددَ اكتساب النور من العرش ، ويترتب عليه في عالم الطبيعة والعناصر مايترتب.

(والقمر قدرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجون القديم) : تقدم ذكر المنازل ، و (عاد) أي صار (كالعُرجون القديم) هو عود عذق النخلة العتيق الذي مرّ عليه زمان يبس فيه . والقمر في أواخر سيره وقربه من الشمس -- في رأي العين -- كالعرجون القديم ، ووجه الشَّبَهِ الاصفرار والدقةُ والاعوجاجُ . (لا الشمس ينبغي لها) أي يتسخر ويتسهل أو يحسن ويليق بالحكمة (أَنْ تُدْرِكَ القمر) أي في سلطانة بأن تجتمع معه في الوقت الذي حدّه اللهُ له ، وجعله مظهراً لسلطانه ؛فانه تعالى جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النَّيِّرَيْنِ ـ الشمسِ والقمر ـ حدّاً محدوداً ، ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه ، فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، بل يتعاقبان الى أن يأتي أمر الله . (ولا الليلُ سابقُ النهارِ) أي لا يدرك القمرُ الشمسَ فيما جعل لها ، أي ولا آية الليل سابقة آية النهار وظاهر سلطانه في وقت

ظهور سلطانها (وكلٌّ) أي كل واحد من الشمس والقمر (في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) الفلك : مجرى الكواكب ، سمي به لاستدارته كفلكة المغزل وهي الخشبة المستديرة في وسطه ، وفلكة الخيمة وهي الخشبة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة . و (يسبحون) أي يسيرون فيه بانبساط . وكل من بسط في شيء فهو يسبح فيه ، ومنه السباحة في الماء وهذا المجرى في السماء . ولا مانع عندنا أن يجري الكوكب بنفسه في جوف السماء ، وهي ساكنة لاتدور أصلاً . وتمام الكلام في التفسير .

وهذه الآية من أعظم مايتمسك به المتشرّعون من علماء الهيئة الجديده ، والله ولي التوفيق .

سورة الصافات

قال تعالى :(إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) ربُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُما ورَبُّ المَشارِقِ (٥) إنّا زيّنّا السماءَ الدُّنْيا بزينةٍ الكواكب (٦) وحفظاً من كلِّ شَيْطانٍ ماردٍ (٧) لايَسَّمَّعُونَ الى المَلأِ الأعلى ويُقْذَفُون من كلّ جانبٍ (٨) دُحُوراً ولهم عذابٌ واصِبٌ (٩) إلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتبعه شِهابٌ ثاقب) — ١٠ — .

الكلام على هذه الآية قد مرّ مثله بمواضع ، فلا حاجة الى إعادته .وفي تفسير (روح المعاني) عند الكلام عليها بيان مفصل ، من أراده فليرجع اليه .

ومعنى (دحوراً) : الطرد والإبعاد ، أي للدحور . ومعنى (واصب) : دائم. والا (ثاقب) : المحرق .

وليست الشهب نفس الكواكب التي زينت بها السماء ، فانها لاتنقضّ . والاّ ، لانتقصت زينة السماء بل لم تبق .

على أن المنقضّ إن كان نفس الكوكب — بمعنى أنه ينقلع عن مركزه ، ويرمى به الخاطف، فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار — لزم أن يقع على الأرض. وهو إن لم يكن أعظم منها ، فلا أقلّ من أن ما انقضّ من الكواكب ،من حيث

حدث الرمي الى اليوم ، أعظم منها بكثير ، فيلزم أن تـكون الأرض اليوم مغشيةً بأجرام الـكواكب ، والمشاهدةُ تـكذب ذلك . بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلاً .

وأصغر الـكواكب عند الإسلاميين كالجبل العظيم ، وعند الفلاسفة أعظم وأعظم ، بل صغار الثوابت عندهم أعظم من الأض . والـكلام في هذا المقـام يطلب من محله .

سورة الشورى

قال الله تعالى : (ومن آياته خَلْقُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وما بَثَّ فيهما من دابّةٍ ، وهو على جَمعِهِمْ اذا يشاء قَدِيرٌ) — ٢٩ — .

هذه الآية تدل بصريحها على وجود حيوانات في السماوات ، لأن الدابة لا تشمل الملائكة ، لأنه في آية أخرى قابل بين الدابة والملك ، وهي قوله تعالى : (ولِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السمٰواتِ ومن في الأَرضِ مِن دابّةٍ والملائكةُ) .

بل ، لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتّى وأحوال مختلفة لا نعلمها ، ولم يُذْكَرْ في الأخبار شيءٌ منها .

فقد قال تعالى : (ويخلُقُ مالا تَعْلَمُونَ) ، وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات في جِرم القمر والسيارات . لكنهم لم يحققوا أمرها ، لنقصٍ ما في الآلات على ما يدّعون .

ونفي ذلك ، ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضرّ القول به .

وعلى القول بوجود حيوانات في السماء ، فالآية تدل على أن العقلاء منهم مكلَّفون أيضاً ، وذلك قوله تعالى : (وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) أي : حشرهم بعد البعث للمحاسبة . ومعلوم أن غير المكلف لا يحشر . وتمام الكلام في موضعه.

سورة الدخان

قال الله تعالى: (فَارْتَقِبْ يومَ تأتي السماء بدُخانٍ مبينٍ (١٠) يَغْشَى النّاسَ ، هٰذا عذابٌ أليمٌ (١١) رَبَّنا ، اكْشِفْ عنّا العذابَ ، إنّا مُؤْمِنُونَ) ـ ١٢ ـ .

أي : تأتي السماء بجدب ومجاعة ، فإن الجائع جداً جرى بينه و بين السماء هيئة الدخان ، وهي ظلمة تعرض للبصر لضعفه ، فيتوهم ذلك . فإطلاق الدخان على ذلك المرئيّ باعتبارِ أن الرائي يتوهمه دخاناً ، ولا يأباه وصفه بـ (مُبين) . أو لأن الهواء يتكدر سنةَ الجدب بكثرة الغبار ، لقلّة الأمطار المسكّنة له . أو أن السماء يظهر منها دخان كثير حقيقةً ، وذلك لقرب الساعة ، وفي التفسير تفصيل ذلك .

وهذه الآية لا دخل لها في هيئة السماوات والأرض ، الاّ على وجه بعيد

* * *

وقال تعالى: (فما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض وما كانوا مُنْظَرِين) ـ ٢٩ ـ .

يراد بالبكاء عدم الاكتراث بهلاكهم ، ولا الاعتداد بوجودهم . وقد كثر في التعظيم لِمَهْلَكِ الشخص : « بكت عليه السماء والأرض » ، « بكته الريح » ، ونحو ذلك . وفي التفسير شواهد كثيرة من شعر العرب عليه .

ومن أثبت ـ كالصوفية ـ للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها ، لم يحتج الى اعتبار المجاز ، وأثبت بكاءً حقيقياً لها بحسب ماتقتضيه ذاتها ويليق بها . أو أوّلَهُ بالحزن أو نحوه ، أو أثبته لها بحسب ذلك أيضاً .

سورة ق

قال الله تعالى : (أفلم يَنْظُرُوا إلى السماءِ فوقَهم كيفَ بَنَيْناها وزَيّنّاها وما لَها من فُرُوجٍ (٦) والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وذِكرىٰ لكلِّ عبدٍ مُنيب) — ٨ — .

أي : أفلم ينظروا الى السماء فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت ؟ وهـذا ظاهر على ماهوالمعروف بين الناس من أن المشاهَدَ هو السماء التي هي الجرم المخصوص الذي يطوَى يوم القيامة ، وقد وُصف بالآيات والأحاديث بما وصف .

وأما على ما ذهب اليه من أن المشاهد هو كرة البخار ، أو هواء ظهر بهذا اللون ولا لون له حقيقة ودون ذلك الجرم ، ففيه خفاء .

وقال بعض الأفاضل في هذا المقام : إن ظاهر الآيات والأخبار ناطقة بأن السماء مرئية . وما ذكره الفلاسفة المتقدمون من أن الأفلاك أجرام صلبة شفافة لا تُرَى ، غير مسلَّم أصلاً . وكذا كون السماوات السبع هي الأفلاك السبعة ، غير مسلم عند المحققين . وكذا وجود كره البخار ، وأن ما بين السماء والأرض هواء مختلف الأجزاء في اللطافة ، فكلما علا كان ألطف ، حتى انه ربما لا يصلح للتعيش ، ولا يمنع خروج الدم من المَسامّ الدقيقة جداً لمن وصل اليه ؛ وأن رؤية الجو بهذا اللون ، لا ينافي رؤية السماء حقيقة وإن لم تكن في نفسها ملوّنة ، ولا يكون ذلك كرؤية قعر

البحر أخضر من وراء مائه، ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون وهو في نفسه على غير ذلك اللون .

وأنت تعلم أن الأصحاب مع الظواهر ، حتى يظهر دليل على امتناع ما يدلّ عليه . وحينئذٍ يؤوّلونها ؛ وأن التزام التطبيق بين ما نطقت به الشريعة وما قاله الفلاسفة — مع إكذاب بعضه بعضاً — أصعب من المشي على الماء ، أو العروج الى السماء .

ومعنى (بنيناها) : أحكمناها ورفعناها بغير عَمَد ، (وريناها للناظرين) بالكواكب المرتبة على أبدع نظام (ومالهامن فروج)أي من فتوق وشقوق ، والمراد سلامتها من كل عيب وخلل ، فلا ينافي القول بأن لها أبواباً .

ومعنى قوله : (والأرض مددناها) قد مرّ مراراً .

سُورة القَمَر

قال الله تعالى : (اقتربت الساعةُ وانشقّ القَمَرُ) — ١ —

أي : انفصل بعضه عن بعض ، وصار فرقتين ، وذلك على عهد رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قبل الهجرة بنحو خمس سنين .

وأنكر الفلاسفه الانشقان ، بناءً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية . ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت ، وفي التفسير أدلّة الطرفين والمحاكمة بينها .

وقد رأيت في (تاريخ اليميني) أن السلطان محمود بن سبكتكين الغَزْنَويّ رأى في بعض غَزَواته بلاد الهند الوثنية لوحاً من الصخر على بعض قصور بلدهم ، منقوشاً فيه أنه تمّ بناؤه ليلةَ انشقاق القمر ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

* * *

وقال تعالى : (فَفَتَحْنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْهَمِرٍ) — ١١ —

أي : منصب .

واضطربت الأقوال في المراد بـ (الأبواب) . ومن أظهرها أنها « المَجَرّةُ » ، وهي شرج السماء كشرج العَيْبَة ، والمعروف من الأرصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً . والتفصيل في التفسير .

سورة الطلاق

قال عزّ وجلّ : (اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ ، ومن الأرضِ مِثْلَهُنَّ ، يتنزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأَنَّ اللهَ قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً) — ١٢ — .

تقدم الكلام على عدد السماوات غير مرة .

وأما الأَرَضُونَ السبع ، فقد حارت فيها عقول المفسرين ، وذكروا فيها أقوالاً كثيرة . وقد جعلها الله تعالى مثل السماوات ، والمثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف ، فقال الجمهور : المثلية هاهنا في كونها سبعاً ، وكونها طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفي كل أرض سكان من خلق الله عز وجل لايعلم حقيقتهم الا الله تعالى ، وورد في بعض الأخبار : في كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وابراهيم كابراهيم ، وعيسى كعيسى . والمراد أن في كل أرض خلقاً ، يرجعون الى أصل واحد رجوعَ بني آدم في أرضنا الى آدم ، وفيهم أفراد ممتازون على سائرهم كنوح وابراهيم وغيرهما فينا .

وقول الجمهور هذا أصحّ سائر الأقوال ، وهو أن بين كل أرض وأرض من السبع مسافةً عظيمة ، وفي كل أرض خلق لايعلم حقيقتها الا الله عز وجل ، ولهم

ضياء يستضيئون به . ويجوز أن يكون عندهم ليل ونهار ، ولا يتعين أن يكون ضياؤهم من هذه الشمس ولا من هذا القمر .

وقد غلب على ظن أكثر أهل الحكمة الجديدة أن القمر عالم كعالم أرضنا هذه، وفيه جبال وبحار ، ويزعمون أنهم يحسون بها بواسطة أرصادهم . وهم مهتمون بالسعي في تحقيق الأمر فيه . فليكن ما يقول به الجمهور من الأرضين السبع على هذا النحو .

وقد قالوا أيضاً : إن هذه الشمس في عالم هي مركز دائرته ، وبلقيس مملكته . بمعنى أن جميع مافيه من كواكبه السيارة تدور عليها فيه على وجه مخصوص ونمط مضبوط ، وقد يقرب اليها فيه ويبعد عنها الى غاية لايعلمها الا الله تعالى كواكبُ ذوات الأذناب ، وهي عندهم كثيرة جداً ، تتحرك على شكل بيضي . وأن الشمس بعالمها من توابع كوكب آخر ، تدور عليه دورانَ توابعها من السيارات عليها ، وهو فيما نسمع أحد كواكب النجم . ولهم ظنٌ في أن ذلك أيضاً من توابع كوكب آخر ، وهكذا . وملك الله العظيم عظيم ، لايكاد يحيط به منطقة الفكر ، ويضيق عنه نطاق الحصر .

وسماء كل عالم كالقمر عندهم ما انتهى اليه هواؤه، حتى صار ذلك الجرم في نحو خلاء فيه ، لايعارضه ولا يضعف حركتَهُ شيء . والجسم متى تحرك في خلاء ، لايسكن لعدم المعارض . فلتكن كل أرض من هذه الأرضين السبع محمولة بيد القدرة بين كل سماءين ، وهناك ما يستضيء به أهلها سابحاً في فلك بحر قدرة الله عز وجلّ ، ونسبة كل أرض الى سمائها نسبة الحلقة الى الفلاة ، وكذا نسبة السماء الى السماء التي فوقها .

ويمكن أن تكون الأرضون، وكذا السماوات ، أكثر من سبع . والاقتصار على العدد المذكور الذي هو عدد تام ، لا يستدعي نفي الزائد ، فقد صرحوا بأن العدد لا مفهوم له .

هذا ، وكثير من الأخبار في أمر السماوات والأرض والكواكب ، لا يعول عليها كما أشار اليه (النسفي) في (بحر الكلام) ، وكذا ماقاله قدماء أهل الهيئة ومُحْدَثُوهم .

وفي كلٍّ مما ذهب الفريقان اليه ما يوافق الأصول وما يخالفه ، وما الشريعة الغراء ساكتة عنه ، لم تتعرض له بنفي أو إثبات .

وقد يلتزم الإبقاء على الظاهر ، وتفويضُ الأمر الى قدرة الله تعالى التي لا يتعاصاها شيء ، رعايةً لأذهان كثير من الناس المقيدين بالظواهر الذين يعدّون الخروج عنها — ولاسيما الى ما يوافق الحكمة الجديدة — ضلالاً محضاً ، وكفراً صِرْفاً . ورحم الله امرأً جبَّ الغيبة عن نفسه ، وعن ابن عباس في هذه الآية ، قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها .

وفي الجملة : من صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل ، لا ينبغي أن يتوقف في وجود سبع أرَضين على الوجه الذي قدمناه ، ويحملَ السبع على الأقاليم أوعلى الطبقات المعدنية والطينية ونحوها . وليس ذلك مما يصادم ضرورياً من الدين ، أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين .

* * *

آيات من سور متفرقة

واعلم أنه قد بقيت آيات تتعلق بالسماوات ، أعرضنا عن ذكرها ، لسبق أمثالها.
منها قوله تعالى في سورة الزمر: (لَهُ مَقاليدُ السمٰواتِ والأرضِ ..) — ٦٣ — .

ومنها قوله تعالى في سورة المؤمن : (الذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ ، يُسَبِّحُونَ بحمدِ ربّهم) الآية — ٧ — .

ومنها قوله تعالى في سورة فصّلتْ : (قُلْ : أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ ، وتَجْعَلُون له أنداداً ، ذٰلك رَبُّ العالمينَ (٩) وجَعَلَ فيها رواسيَ من فوقِها) الآية — ١٠ — .

ومنها قوله تعالى في سورة المُلك : (وهو العزيزُ الغَفُورُ (٢) الذي خَلَق سبعَ سَمٰواتٍ طِباقاً ، ما ترٰى في خلق الرحمٰن من تفاوُتٍ ، فارْجِعِ البَصَرَ هل ترٰى من فُطُورٍ ؟ ثم ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إليكَ البَصَرُ خاسئاً وهو حَسِيرٌ (٤) ولقد زيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بمصابيحَ وجَعَلْناها رُجُوماً للشياطينِ ، وأعْتَدْنا لهم عَذابَ السَّعِيرِ) — ٥ — .

ومنها قوله تعالى في سورة الحاقة : (فإذا نُفِخَ في الصُّور نَفْخَةٌ واحدةٌ (١٣) وحُمِلَتِ الأَرضُ والجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (١٤) فيومئذٍ وَقَعَتِ الواقعةُ (١٥) وانْشَقَّتِ السماءُ فهي يَوْمَئِذٍ واهيةٌ (١٦) والمَلَكُ عَلَى أرجائِها ، ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ (١٧) يومئذٍ تُعْرَضُون ، لا تَخْفٰى منكم خافيةٌ) — ١٨ — .

ومنها قوله تعالى في سورة الجن : (وَأَنّا لَمَسْنا السَّماءَ ، فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً (٨) وَأَنّا كُنّا نقعُدُ منهـا مَقاعِدَ للسمع ، فَمَنْ يستمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهاباً رَصَداً (٩) وَأَنّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ في الأَرضِ أَمْ أرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشداً) — ١٠ — .

ومنها قوله تعالى في سورة المزمل : (فكيف تتّقُونَ إنْ كَفَرْتُمْ يوماً يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً (١٧) السماءُ مُنْفَطِرٌ به كانَ وَعْدُهُ مفعولاً) ـ ١٨ ـ .

ومنها قوله تعالى في سورة القيامة : يَسْئَلُ أَيّانَ يومُ القِيامةِ (٦) فـإذا بَرِقَ البَصَرُ (٧) وخَسَفَ القَمَرُ (٨) وجُمِعَ الشمسُ والقَمَرُ (٩) يقولُ الإنسانُ يومئذٍ : أَينَ المَفَرُّ (١٠) كَلاّ لا وَزَرَ (١١) إلى رَبِّكَ يومئذٍ المُسْتَقَرُّ) — ١٢ — .

ومنها قوله تعالى في سورة المرسلات : (فإذا النجومُ طُمِسَتْ (٨) وإذا السماءُ فُرِجَتْ (٩) وإذا الجِبالُ نُسِفَتْ (١٠ وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الفَصْلِ) — ١٣ — .

ومنهـا قوله تعالى في سورة النبأ — أي — عَمَّ — : (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرضَ مِهاداً (٦) والجِبالَ أَوتاداً (٧) وخَلَقْناكُم أَزواجاً (٨) وجَعَلْنا نَوْمَكُم سُباتاً (٩) وجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً (١٠) وجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً (١١) وبَنَيْنا فوقَكُم سبعاً شِداداً (١٢) وجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً (١٣) وأنزلنا من المُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً (١٤) لِنُخْرِجَ به حَبّاً ونَباتاً (١٥) وجَنّاتٍ أَلفافاً ؟) — ١٦ — .

ومنها قوله تعالى في سورة النازعات : (أَأَنتم أشدُّ خَلْقاً أَمِ السماء ؟ بَنٰها (٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاٰها (٢٨) وأَغطشَ ليلَها ، وأخرجَ ضُحٰها(٢٩) والأَرض بعدَ ذٰلكَ دَحٰها (٣٠) أَخرجَ منها ماءَها ومَرْعٰها (٣١) والجِبالَ أَرسٰها (٣٢) مَتاعاً لكم ولِأَنْعامِكم) — ٣٣ — .

ومنها قوله تعالى في سورة التكوير : (إذا الشمسُ كُوِّرَتْ (١) وإذا النُّجومُ اُنكدَرَتْ (٢) وإذا الجِبالُ سُيِّرَتْ (٣) وإذا اُلعِشارُ عُطِّلَتْ) — ٤ —

ومنها قوله تعالى في سورة الانفطار :(إذا السماء اُنفطرتْ (١) وإذا الكواكبُ اُنتثرتْ (٢) وإذا البِحارُ فُجِّرتْ) — ٣ — .

ومنها قوله تعالى في سورة الاُنشقاق : (إذاالسماء اُنشقَّتْ (١) وأَذِنَتْ لِرَبِّها وحُقَّتْ (٢) وإذا الأَرضُ مُدَّتْ (٣) وألقت ما فيها وتَخلَّتْ (٤) وأَذِنَتْ لربّها وحُقَّتْ) — ٥ — .

ومنهاقوله تعالى في سورة البروج : (والسماء ذات البُرُوجِ (١)واليومِ المَوْعُودِ(٢) وشاهدٍ ومشهودٍ) — ٣ — .

ومنها قوله تعالى في سورة الطارق : (والسماء والطّارِقِ (١) وما أدراك ما الطارقُ (٢) النجمُ الثاقب (٣) إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمّا عليها حافِظٌ) — ٤ — .

ومنها قوله تعالى في سورة الغاشية : (أفلا ينظُرُونَ الى الإِبلِ كيفَ خُلِقَتْ (١٧) والى السماء كيف رُفِعَتْ (١٨) والى الجبالَ كيف نُصِبَتْ (١٩) والى الأَرضِ كيف سُطِحَتْ (٢٠) فذكِّرْ ...) — ٢١ — .

ومنها قوله تعالى في سورة الشمس: (والشمسِ وضُحٰها (١) والقمرِ اذا تَلٰها (٢) والنهارِ إذا جَلّٰها (٣) واللّيلِ إذا يَغْشٰها (٤) والسماء وما بنٰها (٥) والأرض وما طَحٰها (٦) ونَفْسٍ وما سَوّٰها (٧) فألهمها فُجُورَها وتَقْوٰها (٨) قد أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰها (٩) وقد خابَ مَنْ دَسّٰها) — ١٠ — .

* * *

هذا آخر ما يسّره الله ، مما تصدّينا له وقصدناه .

فله سبحانَهُ الحمد ، حمداً لايحصى ولايعدّ ؛ فإنه أنشأ الأشياء من غير شبح ، وصوّر ما صوّر من غير مثال ، وأبتدع المبتدعات بلا احتذاء . هو الذي قدّر كل شيء تقديراً ، ويسّرَ كلّ شيء تيسيراً ، ودبّر مادبّر تدبيرا . لم يعنه على خلقه شريك ولم يؤازره في أمره وزير ، ولم يكن له مشابه ولا نظير . هو الذي ابتدأ واخترع ، واستحدث وابتدع ، وأحسن صُنْعَ ماصَنَعَ . سبحانَهُ ، ما أجلّ شانَهُ ، وأصدعَ بالحق فُرقانَهُ !

فأسألك اللهمّ ربّ السماواتِ السَبْع وما أظلّت وربّ الأَرَضين السبع وما أقلّتْ ، وربّ الشياطين وما أضلّت ، أن تكون لي جاراً من شرّ خلقك جميعاً أن يفرط عليّ أحدٌ منهم أو أنْ يطغى . عزّ جارك ولا الـه غيرك .

وكان ذلك لست بقين من شوّال سنة تسع وثلاثين
وثلاثمائة وألف من هجرة سيّد الكائنات ،
وإمام الموجودات ، حبيب رب العالمين ،
ومصطفى الخلق أجمعين .

فهرس الأحاديث [1]

ص	السطر	الحديث
١٣	٦	أصبح من عبادي مؤمن . . . أخرجه الشيخان في صحيحيهما
١٣	٨	إذا نشأت بحرية . . . رواه مالك (١ / ١٩٢ / ٥) بلاغاً بدون اسناد
٣١	٩	عن ابن عباس – في ذكر العرش – : « إنه لا يقدر قدره أحد »
٣١	١٢	يا أبا ذر ما السموات السبع . . . وما الكرسي في العرش . . . رواه ابن جرير ، ومحمد بن جعفر بن أبي شيبة ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق عن أبي ذر مرفوعا ، وهو حديث صحيح . رواه ابن أبي شيبة في «العرش» والحاكم في المستدرك بسند صحيح موقوفا ، ورواه الضياء في الأحاديث المختارة ، مرفوعا وهو غلط كما قال ابن كثير
٣٣	١	الكرسي موضع القدمين أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في « العرش » (ق ١١٤ / ١ – ٢) والبيهقي

(١) ومعه تخريجها لمحدث الشام الشيخ ناصر الدين الألباني

ص	السطر	الحديث
		في « الاسماء والصفات »(٢٩٠) من طريق عمارة بن عمير عن أبي موسى موقوفا عليه به ، دون قوله « الجديد ، إذا ركب . . . » وأخرجه الخطيب في تاريخه (٨ / ٥٢) من طريق عبد الله بن خليفة مرفوعاً مع الزيادة إلا أنه قال : « إلا قدر . . . » ورواه ابو يعلى والبزار عن ابن خليفة هذا عن عمر مرفوعا وقال الحافظ ابن كثير : « عبد الله بن خليفة، وليس بذاك المشهور ، وفي سماعه من عمر نظر ، وعندي في صحته نظر »
٤٤	٥	الميت تحضره الملائكة . . » رواه بن ماجة وأحمد بسند حسن . وله شواهد كثيرة
٤٥	٢	حديث المعراج . أخرجاه في الصحيحين
٦٤	١٢	إن الزمان قد استدار . . » رواه الشيخان وغيرهما.
٧٢	١	ما أظلت الخضراء . . » رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد عن ابن عمرو وقال الترمذي : « حديث حسن» ثم رواه عن أبي ذر وحسنه أيضاً. وله شواهد أخرى .
٧٦	١٩	لما خلق الله تعالى الأرض . . » رواه أحمد (٣/١٢٤) وغيره بسند ضعيف
٧٧	١٨	وجاء في أربعة منها - الأنهار — : أنها من الجنة رواه مسلم (٨/١٤٩) وأحمد (٢ / ٢٦٠ ٢٨٩ / ٤٤٠)
٧٧	١٩	نهران مؤمنان . . » لم أجده ، ولم يورده السيوطي في « الجامع الكبير » وما أظنه يصح .

ص	السطر	الحديث
٨٨	٧	إذا طلع النجم ارتفعت العاهة . . » أخرجه الامام محمد بن الحسن في كتاب «الآثار» ص(١٥٩) وغيره بسند ضعيف لما بينته في « الأحاديث الضعيفة » (رقم ٣٩٦)
٩٤	٧	لا تخيروا بين الانبياء . . » أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما
٩٩	١١	الكرسي موضع القدمين . . » أخرجه الضياء وغيره بسند ضعيف مرفوعاً ، ورواه هو وغيره بسند صحيح عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وهو الصواب كما تقدم رقم ٩/٢٤ . والشطر الأول رواه أبو جعفر ابن أبي شيبة في « العرش » بسند صحيح عن أبي موسى موقوفاً عليه .
١١٩	١٥	يا أباذر أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ . . » أخرجه البخاري ومسلم
١٢١	١٥	تَمَثُّلُ جبريل بصورة دحية [١] ، أو بصورة بعض الأعراب [٢]

(١) فيه حديث عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله (ص) ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام الحديث وفي آخره ... ثم قال لي يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . » أخرجه مسلم (١ / ٢٩) واحمد (٢ / ١٠٧) وزاد في رواية في آخره : « وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي (ص) في صورة دحية » واسناده صحيح . ورواه النسائي (٢ / ٢٦٦) من حديث أبي هريرة وابي ذر معاً وزاد في آخره : —

ص	السطر	الحديث
١٢٢	١٠	أنه صلى الله عليه وسلم رأى موسى يصلي في قبره عند الكثيب الاحمر ، رواه مسلم والنسائي وأحمد وأبو نعيم
١٢٢	١٠	ورآه في السماء .. » هو قطعة من حديث الاسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما .

- « ثم قال : لا والذي بعث محمداً بالحق هدى وبشيرا ، ما كنت باعلم به من رجل منكم وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي » واسناده صحيح ، وطعن الحافظ ابن حجر في صحة هذه الزيادة ، وأجاب عن ذلك أبو الحسن السندي في حاشيته على النسائي ، فليراجعه من شاء .

وفيه عن عائشة قالت :

« رأيت رسول الله (ص) واضعاً يديه على معرفة فرس وهو يكلم رجلاً ، قلت : رأيتك واضعاً يديك على معرفة فرس دحية الكلبي ، وانت تكلمه ، قال : ورأيت قالت : نعم : قال : ذاك جبريل عليه السلام ، وهو يقرئك السلام ، قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، جزاه الله خيرا من صاحب ودخيل ، فنعم الصاحب ونعم الدخيل . قال سفيان : الدخيل الضيف »

أخرجه احمد (٦/٧٤ - ١٤٦،٧٥) : ثنا سفيان بن عيينه عن مجالد عن الشعبي عن أبي سلمة عن عائشة به . ورواه ابن سعد في « الطبقات » (٨ /٤٦) من طريق أخرى عن مجالد به إلا أنه قال « مسروق » بدل « ابي سلمة » ومجالد ضعيف ، ولكن له طريق اخرى عند ابن سعد (٤ / ١٨٤) عن القاسم بن محمد عنها يتقوى بها .

(٢) قوله أو بصورة بعض الاعراب .

لم اقف الآن على حديث يشهد لذلك ، وقد قال الحافظ في « الفتح » (١/ ١٠٧) في شرح قوله في حديث عمر المتقدم : « حتى جلس الى النبي (ص) فاسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه » : « والظاهر أنه اراد بذلك المبالغة في تعميه أمره ليقوي الظن بانه من جفاة الأعراب ولذلك تخطى الناس حتى انتهى الى النبي (ص) كما تقدم ، ولهذا استغرب الصحابة صنيعه » .

قلت : فلعل هذا الشرح من الحافظ هو منشأ الظن أنه كان يأتي بصورة بعض الاعراب ، وقد علمت مما سبق أنه في هذه الحادثة كان في صورة دحية الكلبي . والله أعلم .

الفهرست

٣ مقدمة الناشر
٨ ترجمة المؤلف
١٠ مقدمة المؤلف
١٦ آيات سورة البقرة
٣٥ « « آل عمران
٤٠ « « الأنعام
٤٤ « « الاعراف
٤٩ « « براءة
٥٠ « « يونس
٦٧ « « هود
٦٩ « « الرعد
٧٩ « « ابراهيم
٨١ « « الحجر
٨٧ « « النحل
٩٠ « « الاسراء
٩٢ « « الكهف
٩٣ « « مريم
٩٤ « « طه
١٠٠ « « الأنبياء
١٠٤ « « الحج
١٠٦ « « المؤمنون
١٠٧ آيات سورة النور
١١٠ « « الفرقان
١١٢ « « الشعراء
١١٣ « « النمل
١١٤ « « العنكبوت
١١٥ « « الروم
١١٦ « « لقمان
١١٧ « « السجدة
١١٧ « « سبأ
١١٨ « « فاطر
١١٩ « « يس
١٢٦ « « الصافات
١٢٨ « « الشورى
١٢٩ « « الدخان
١٣٠ « « ق
١٣٢ « « القمر
١٣٣ « « الطلاق
١٣٦ آيات من سور متفرقة
١٤٠ الأحاديث
١٤٤ الفهرس

مكتبة أبو هلال
الدمام
مختار عبد الحميد الفوز